# ساعات السحر

بقلم


**الدكتور أحمد زكى**

دكتور فلسفة Ph. D. (Liverpool)

دكتور فى العلوم D. Sc. (London)

عضو مجمع اللغة العربية


## فهرس

# ساعات السحر

بقلم

الدكتور أحمد زكى

دكتور فلسفة Ph. D. (Liverpool)

دكتور فى العلوم D. Sc. (London)

عضو مجمع اللغة العربية

## فهرس

الطبعة الثانية

# ساعات السَّحَر

---

هذه كلمات ، ثمانٍ وعشرون ، فى شئون من الحياة شتَّى ، لم أدْرِ ما أُسمِّيها ، ثم ذكرتُ أنى كتبتها ، حين كان يُصيبنى القلق ، أو لعله الكفايةُ من النوم ، عند نحو الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل . وأقوم فلا أجد مكاناً يأوى إليه القائم والناس نيام غير مكتبى . فأقضى فيه ساعةً أكتب أو ساعتين . ثم يؤذّن المؤذن بالفجر ، يأتينى صوته من بعيد ، عَبْرَ الشجر والحجر ، كأنما ينادينى ، فيغلبنى النوم ، فأكُفُّ لأنام .

ومن أجل هذا سمَّيتُ هذه الكلمات « ساعات السَّحَر » ، ربطاً لها بزمانها ، لما عزّ أن أربطها بموضوعها .

وبالله التوفيق ؟

المعادى عام ١٩٥٠ أحمد زكى

# يعجبنى الشباب إذا . . .

يُعجبنى الشباب إذا هو أدرك أنه الشباب ، فأخذ له أكثرَ حقه ، وأعطى عنه أكثرَ واجبه ، ومضى على ثقةٍ يداعب الآمال ، ويحلم الأحلام .

يعجبنى الشباب إذا هو استقام واستطال ، ثم انفتل ، عضلٌ مشدود يستطيع أن يرتخى ، وذراعٌ ممدودة تستطيع أن تنطوى ، ورأس مرفوع ، وصدر مفتوح ، يستقبل الريح باردة ، ويستقبلها لافحة ، وظهرٌ عريض يحمل الأثقال ابتساما ، وقدم ككرة المطاط لا تمس الأرض حتى ترتدّ عنها ، ومفاصلُ كمفاصل الفولاذ أُغرِقت فى الزيت ، وجسم صحيح سليم كالدينار ، إذا ضربْته على الرخام رنّ ، له متانة الحديد ، وليس به مَسّه ، نشأه أبواه فأحسنا تنشيئه ، وروّضته الرياضة فأحسنت ترويضه .

> « وجعلوا بين الشباب والكهولة خصومة ، ودخلوا بالسعاية بين الآباء والأبناء ، جموحاً بالأقلام ، واسترسالا فى البغى ، ومناقضة للطبيعة »

* *

يعجبنى الشباب إذا هو تأنق وترقق فى غير أنوثة

أو خنوثة ، فيعجبنى منه الوجه الطلق النظيف الذى يعمل فيه الموسَى كل يوم ، أو لا يعمل أبداً ، والشعر المقلّم الممشوط ، والثوب البسيط الأنيق . فتلك زينة خليقة بابن آدم ، وهى أخلق ما تكون بشبابه ، وهى ضريبة المنظر الطيب الذى لا بد أن يَشِيع فى دنيا يخفف من عَنَتها أن تقع العين فيها على الحسن الجميل . ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنق ، وينبو عن الترقق ، فإن كان العمل فحماً وزيتاً انغمس فى الفحم والزيت ، وإن كان انبطاحاً على الأرض تمرغ فى تراب الأرض ، وإن كان بخاراً وعفاراً ، نَشَق الأبخرة ، ولم يُشِح بوجهه عن الأعفرة . فإذا انتهى النهار دخل الحمام ، وخرج منه فعاد إلى التأنق على الصحة التى أكسبها العمل ، وإلى الترقق على القوة التى أكسبها مِران العضل .

* *

يعجبنى الشباب إذا هو تفقّع وتفرقع بالحياة ، فإذا ضحك ضحك عالياً ، وإذا نكّت نكت مسموعاً . ويعجبنى فيه الحس بالفكاهة ، يتلقّفها طائرةً ، ثم هو يطلقها ليَلْقفها الناس . ويعجبنى منه أن يخلع عِذاره أحياناً ، كما يخلع الفرس ، فيطمح ويجمح ، ولا يكون ذلك منه دَيْدنا . وهو مع هذا يَعْزِف عن الخنا ، ويحبس لسانه عن مَقالة السوء ، ويجيب داعى المروءة ، فيتمهّل

فى سرعته ليعين طفلا ، أو يقوم عن مقعد لتقعد امرأة ، وهو يحترم أخت صديقه إذا لقيها فى الطرقات ، ويعلم أن كل من يلقى من نساء إنما هن أخوات وأمهات وعمات . وهو يحترم وقارَ المواقف وسكونَ الجامع ، فلا يقف والناس قعود ، ولا يقعد والناس قيام ، ولا يضحك والناس محزونون مكروبون .

**

يعجبنى الشباب إذا هو أدرك أن الصبا عهد مُتعةٍ ولكنه كذلك عهد تحصيل ، وأن حياة الرجل المدنية الحاضرة غير حياة رجل الغابة ورجل الصحراء . وأن المدنية جلبت الناس الراحة ، وجلبت المتعة ، وأنها لم تنزل من السماء جاهزة ، ولم تسقط إلى الأرض على الدعاء والتمنى ، وإنما هى نِتاج مجهودات عقلية جبّارة ، وهى حَصِيلة القرون وإرث الأجيال . والأمم تتوارثها بالحفظ ، وتقوم عليها بالكد ، فتجدّد بالياً ، وتملأ فارغاً ، وتَزيد على ما كان . وكل فرد يولد على هذه الأرض مسئول عن هذا الإرث ، وله فى حفظه ، وتجديده ، وزيادته ، نصيب . وهو إرثٌ لا يتأهل لحفظه وتجديده وزيادته كل أحد . فالمدنية الحاضرة مدنية من نِتاج الصنعة . وهى صنعة الإنسان العاجز إذا هى قورنت بصنعة الطبيعة القادرة الخالدة ، ومن أجل هذا جاءت مدنية الناس

كبيرةً ضخمة غليظة معقدة كثيرة المحاور ، كثيرة العجل ، كثيرة التروس ، كثيرة التعاشيق ، لا يمسها فلا يفسدها إلا من درس وحصّل ، ووَرِث علمَ القرون . ووارثو علم القرون ، وحاملو المشعل من جيل إلى جيل ، إنما هم شباب الجيل . لهذا وجب أن يكون الشباب مُتعةً ودرساً . أما المتعة فلأن الشباب أقدر على مُتعة ، وأحسّ بلذة ، وكل لذة عنده جديدة ، وعمره من بعد ذلك كعمر الورود قصير . وأما الدرس فلأن الدرس تَبِعةُ الإنسان لنفسه ، وعلى عُمُده يقيم بناء مستقبله ، ومستقبلُه إذا ساء بكى عليه ، وبكى وحده ، وبكى حين لا ينفع بكاء . ثم لأن الدرس حصّة الإنسان فى مواصلة المدنية وفاءً بمسئوليته للقبيل وللأمة والجيل .

**

يعجبنى الشباب أن يكون مُجدِّداً متجدّداً ، يعلم أن عربة الحياة لا بد أن تسير ، وأن تسير دائما نحو النور . فالعلم لا بد أن يتجدد ، وتتجدد أساليبه . والمال لا بد أن تتجدد طرائقه ، ويتجدد كاسبه ، وتتجدد حظوظ الناس فيه . والصحة لا بد أن تتجدّد فيها المرافق ، وتجارى الزمان ، وأن تتوزع منافعها وفقاً لما يراه الجيل الجديد من توزيع المنافع على بنى الإنسان . والأدب

لا بد له فى العصر الجديد ، والبيئة الجديدة ، والحاجات الجديدة ، من مذاهب فى البيان جديدة ، تساير الناس فى معاشهم ، وتمس الحياة من قريب .

والحكم يتجدد ، فهو من حيث أسلوبه لابد أن يجرى على أحسن الأساليب ، ومن حيث إدارة دولابه ، لا بد أن يجرى على أحدث ما تجرى الدواليب . ومن حيث إقامته لا بد أن يكون لكل فرد فى الناس صوت فيه مسموع . وهو من حيث الثمراتُ ، لا بد أن يكون لكل عضو فى مجتمعه فرصةٌ متساوية عند الزرع ، لتكون له فرصة مؤاتية عند الحَصاد .

والصناعة تتجدد ، فينتقل بها المجدّدون من عمل اليد إلى عمل البخار ، ومن البخار إلى الكهرباء ومن الكهرباء إلى الطاقة الذرية حين تكون .

والتعليم يتجدد ، فتتجدد كتبه ، وتتجدد فنونه ، ويُستهدَى فيه أكثرَ استهداء بآخر ما وصلت إليه علوم النفس من كشف مواطن النفس وخفاياها .

كل هذا جميلٌ أن يتجه الشباب فيه إلى التجديد ، فهو مما يتغير ويتبدل على الأيام .

ولكن فى الحياة عناصر قديمة لا يمكن أن يعتريها تغيير

وتبديل ، إلا أن تتزلزل أركان العيش ، ويتقوض بناء الحياة . فالأمومة قديمة ، والأبوة قديمة ، والبنوة قديمة ، وواجبات هذه وهذه كلها قديمة ، وكذلك حقوقها . وهى حقوق وواجبات قد تطول وقد تقصر ، وقد تتسع وقد تضيق ، ولكنّ قدْراً منها لا بد ثابت لضمان سير الحياة واتصال روابطها . فالتحرّر قد يكون فى شىء وشىء وشىء ، ولكن التحرر لا يمكن أن يكون لطفل رضيع أو صبى يافع ، والتحرّر كلُّ التحرر لا يمكن أن يكون حتى لشاب بالغ ، مادام أن هناك شيئاً يُسمى العجز ، وما بقى الزمن عاملا فى بلوغ القدر اللازم من خِبرة الحياة .

* *

يعجبنى الشباب إذا هو أصغى إلى الملق الكثير الذى يُكال له هذه الأيام كيلا ، فأخذ منه بمقدار ما يأخذ من المنبّهات التى تُنعش وتنشّط ، ولا يزيد فيكون ذلك إدماناً . فالمدح والإطراء للتشجيع ، وليس أحوجَ إلى تشجيع كناشئ ، وليس أجملَ من تشجيع هدفهُ شبابُ الأمة .

ولكن الذين يتملّقون الشبابَ لأغراض شتى ، ليست كلها مما يباركها الله ، قد أفرطوا ، حتى حسب كثيرٌ من الشباب ، أن للشباب فى ذاته مؤهل لولوج كل باب ، وهو إنما يتأهل لولوج

الأبواب بالذى يحصّله فى صباه ، وبالقدرة والخبرة اللتين يكتسبهما فيه .

وجعلوا بين الشباب والكهول خصومة ، لا تجد خصومة مثلها ، ولا فى مثل حدّتها ، فى أمة من الأمم . ودخلوا بالسّعاية بين الأبناء والآباء ، جموحاً بالأقلام ، واسترسالاً فى البغى ، ومناقضة للطبيعة ، حتى حسب النشء أن مطالب العصر ، وحوائج الإصلاح ، يجب أن يسبقها تحضير الأكفان ، وحفر القبور ، وشقّ اللحود ، ليكفّنوا ويدفّنوا ويواروا عن الدنيا كل من خانه الحظ من الرجال فاستطال به العمر إلى الخمسين أو الستين . ونسُوا أن من هؤلاء أمهات لهم وآباء . ونسوا أن هذا لو كان من خير الحياة ما أغفلته الطبيعة ، ونسوا أن فترة شبابهم بحكم الزمان قصيرة ، وأنه لا يلبث طالبٌ منهم أن يكون مطلوباً ، وكافن منهم أن يكون مكفوناً ، ودافن منهم أن يكون مدفوناً .

لقد كِدنا نَخال من كثرة ما سمعنا أن الشباب عَلَمٌ على جنس قائم بذاته ، وعلى حِدَته ، وما هو إلا دور فى حياة جنس واحد من أجناس الأحياء يُعرَف بالجنس الإنسانى . ومع الدور أدوار ... فدور الطفولة يأتى من بعده صبا ، فيفاعة ، فشباب ، فرجولة ، فكهولة ، ثم شيخوخة . ولو أن المرء إذا بلغ شبابه

استطاع أن يوقف هذه الكرة الأرضية فلا تدور ، وأن يطلب إلى الشمس أن تَثْبت فى سمائها فلا تغيب ، إذنْ لركعنا للشباب وسجدنا ، وسبّحنا ومجّدنا ، وأحرقنا البخور ورتلنا التراتيل . ولكنّه على الأسف الشديد ساعةٌ واحدة متزايلة فى نهار العيش ، وكل نهار أوله شروق وآخره غروب .

# قلوب كبيرة

في العصر الإغريقي القديم ، رأى الناسُ حكيما من حكمائهم يمشي في الطريق ، وهو يحمل مصباحاً ، والمصباح يُضيء . فسألوه : ماذا تصنع بالمصباح والشمس طالعة ؟ قال : أبحث عن رجل .

وأنا بدوري ، قضيت أشهراً أبحث عن رجل ... عن رجلٍ ذي قلب كبير .

**

مررت بصاحب يُمارس الحكمة ، فسألته : ما الرجل ذو القلب الكبير ؟

قال : الرجل الذي كَبُر شأنه ، فلم يَعُدْ يخشى عليه أن يصغر .

قلت : أو يدوم للقلب الكبير كبره ؟

قال : ما دامت ثِقَتُهُ ، فكبر القلوب عِمادهُ الثقةُ بالنفس .

**

ورحت عن صاحبي هذا ، لألقى صاحباً يمارس التعليم في جامعة .

قلت : حدثني عن قلب كبير لَقِيتَه .

إن الدنيا لاتزال بخير . وإنه لا يزال للعمل الفخم الجميل مساكن في أفئدة رجال ونساء

قال : فى قديم الزمان أم حديثه ؟

قلت : ما أنت والزمانُ القديم .

قال : النقراشى رحمه الله . مات طبّاخه بعد خدمة دامت عشرة أعوام ، فمشى فى جنازته مع الماشين يُشيّعه إلى قبره . وسُئل فى هذا ، فلم يفهم ماذا قصد السائل بسؤاله .

**

ولقيت معلماً إلزامياً ! فسألته :

— ما القلب الكبير ؟

قال : قلب الرجل الذى يعيش اليوم على الفُستق والفالُوذَج ، ثم لا يفتأ يذكر أيام العَدَس والفول .

قلت : من هذا ؟

قال : السيد فلان . هو اليوم ذو جاه طويل وثراء عريض ، وكان عندما هلّ هذا القرن فقيراً يُنكره الناس . لم يغيّره مال ، ولم يذهب بهدوئه واتزانه نفوذ . لا تجلس إليه ، غنياً كنت أو فقيراً ، فتَذْكر النعمةَ ، حتى يأخذ يقصّ عليك قصة الفقر القديم والوضاعة السالفة . يصف لك كيف كان يطوى الليل جوعانا ، ويفترش الحصير ، ويرتعد من العُرْى إذا حلّ الشتاء .

ويذكر ذلك فى غير استحياء ولا استِخْذاء . ويختم قصَّته فيقول: إنه ربِّى أكرمنى .

قلت : هذا كمَعْن بنِ زائدة . أتاه البدوىُّ يطلب عطاءه استفزازاً ، فأنشده :

أتذكر إذْ لِحافك جلدُ شاةٍ     وإذْ نعلاك من جلد البعير ؟

قال معن : أذكره ولا أنساه .

قال البدوى :

فسبحان الذى أعطاك مُلكا     وعلَّمك الجلوسَ على السرير

قال معن : إن الله يُعِزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء .

وعلى الرغم من هذا طلب البدوىّ من معن عطاءً فأجزل له العطاء .

قال المعلم الإلزامى : نعم هو ذاك . هو معن . فصاحبى الذى أصف ذو عطاء . وفى كلِّ جيلٍ معن ، وفى كلٍّ قبيل .

**

ولقيت صاحباً قاضياً .

قلت : ما القلب الكبير ؟

قال : ذلك الذى يغفر حين لا تُرجَى منه مغفرة .

قلت : فأى قلب هذا ؟

قال : قلبُ أبى . أساءت أمى إليه ، أولَ الأمر ، أكبر إساءة تسيئها امرأةٌ إلى رجل . ثم جاءت تطلب الغفران فى كبرياءَ ذليلةٍ ، وعزّةٍ كَسيرة ، وعينٍ دامعة . فغفر . فكانت له من بعد ذلك أطوع من بنانه ، وأخلص من نفسه لنفسه .

ففتحت عينى دَهَشاً للذى سمعت .

قلت : لست أدرى أىّ قلبيْكما أكبر ، قلبُك أم قلبُ أبيك ؟

قال : وما كِبَرُ قلبى ؟

قلت : طُهر طهارة لم تَخْشَ معها مقالةَ السوء .

قال : كان هذا منذ خمسين عاما . إن أصلاب الناس قديمةٌ مديدة ، تمتدّ إلى آدم . فأيُّها سَلِمَ ، على بعد الطريق ، مما فى الطريق من أوحال وأقذار .

**

وسألت امرأة شابة :

قلت : أى القلوب الكبير ؟

قالت : القلب الذى يفعل لنا الفَعْلةَ القليلة ، فيكون لها فينا أثرٌ كبير .

قلت : أىّ قلبٍ هذا ؟

قالت : قلب ناظرتى القديمة ، الدكتورة فلانة . دخلتُ السكليّةَ أولَ عام . واحتفلوا لأول مرة ، فحضرتُ وليس لى فيمن حضرْنَ صاحبة أو صاحبٌ ، وأحسستُ حينا إحساسَ السمكة وقد خرجت عن الماء . فإذا بامرأة تقصد إلىّ وتقدّم يدها مُصافحةً وهى تقول : أنا فلانة ، أظن أننا ما التقينا قبل الآن . لم تقل إنها الدكتورة أو الناظرة أو شىء من هذا . وإنما طوّقتْنى بذراعها ، وأخذتنى إلى حيث وجدتُ الأنسَ من بعد وَحشة . وَمرِضتُ مرضاً خطيرا ، فدَهِشَتْ أمّى لامرأة تأْتى عند بابنا تستخبر عنى ولا تدخل . فكانت هى ، جاءت ولم تشأ أن تُزعجنا . وازداد علىّ المرض ، فنقلونى إلى المستشفى ، فكانت هى فى أوّلِ الزائرات . وتركت لى زهراتٍ ، اشترتها بقرشين أو ثلاثة ، بقيتْ منها عندى إلى الآن زهرةٌ تَعْدل عندى ثروة .

قلت : وأين صاحبتك هذه الآن ؟

قال : جفّتْ كالزهرة التى احتفظْتُ بها منها ، عليها وعلى مثيلاتها رحمةُ الله .

**

وسألت شاباً ممن نجحوا فى الحياة .

قلت : أى القلوب الـكبيرة ؟

قال : قلوب الأشباح .

قلت : وهل للأشباح قلوب ؟

قال : نعم . مات والدى على حين غفلة . وكان كاسِبَنا الأوحد . فاضطُررنا إلى الانتقال من بيتٍ كبيرِ النعمة ، إلى بيتٍ محدود طعامُهُ ، محدود شرابُهُ ، محدودة كِسوته . وكدنا نَنْـكُص عن الحياة إلا رَمَقا . وبَغْتَةً يأتينى خطاب يذكر صاحبه فيه أنه صديق لوالدى قديم ، وأنه سيأتينا منه مبلغٌ قليل يستمر ما بَقِينا لا نسعى فى كشف أمره . وجاء المبلغ القليل فى انتظام غريب ، فـكان لنا عَوْناً كبيراً . فإنه على ضآلته تضمَّن عاطفةً عظيمة أعادت لنا الثقةَ فى الناس والأقدار . وقُبَيْل امتحانِ الدبلوم بشهرين ، انقطع عنا المال الذى ظلَّ يجرى خمسَ سنين . ونظر بعضنا إلى بعض ولم نقل شيئاً ، إلاّ دمعةً جرتْ من عين أمى .

**

وسألت من بعد هؤلاء أصحاباً وصواحب ، عن القلوب الـكبيرة ، ما هى ، ومن هى ، وخرجت من السؤال والجواب مقتنعاً بأن الدنيا لا تزال بخير ، وأنه لا يزال فى الخلق لبعض

النفوس عِظَمُها وضخامتها ، وأنه لا يزال للعمل الفخم الجميل مساكنُ فى أفئدة بعضِ الرجال والنساء . وأنه لا يزال من الناس من يتلقى العمل القليل المَجِيد ، فيدرك أنه القليل المجيد ، فيلوكه ويتذوقه . ورجعتُ عن نفسى وعن الحياة راضياً .

وزاد فى رضاى أن حكيم الإغريق ، طلب الرجل قديما ، ومصباحه فى يده ، فلم يَجِدْه . وطلبتُه أنا ، حديثًا ، وبغير مصباح ، فوجدته . ووجدتُ مع الرجال نساء .

# خواطر ... عنـــد الحلّاق

نعم، عند الحلّاق. ولن تجد الفكرَ ينطلق انطلاقاً كما ينطلق عند حلّاق. ففى أى مكان عند غير الحلاق تَسكنُ هـذا السكون، ولمن غير الحلاق تُسْلِم نفسك هـــذا الإسلام. وتُسلِمها لمن؟ لرجل فى يده مُوسَى.

وهل تدرى ما الموسى؟ إنه ليس موسى الـكليم. وإنه ليس بسكين، وليس بساطور، ولا هو بسيف. إنه شىء ذو شفرة تُطأطئُ لها إقراراً بالسبْق شفرات السكاكين والسواطير والسيوف. جَرّةٌ واحدة من يد الحلاق، لا يتحرك لخفتها ونعومتها ونظافتها حتى الهـواء، يَجُرّها فى هذه الرقبة التى أمسك بها بشماله، وأعمل فيها الموسَى بيمينه، جَرّةٌ واحدة تختم فى سرعة البرق هذه الحياةَ التى كثيراً ما شاقنى أن أعلم كيف تُختَتَم. وعندئذٍ قد ينفسح لى الوقت، أو لا ينفسح، لأعلم أن حياتى قد اختُتِمت على

> ونظرت إلى يسارى، فوجدت رجلا أصلع له لحية حجبت وجهه. خطأ بسيط فى التوزيع، أنتج وجها كرأس، ورأساً كوجه.

هذه الصورة الرائعة الصارخة . وهى ليست صارخة ، لأنى سأصرخ فيها ، فهيهات الصراخُ مع الموسَى . ولـكن ستَصرخ الجرائد فى الصباح التالى ، لا تقديراً لقيمة المرحوم ، ولـكن فزعًا من هذا السلاح الذى خرج مرّةً عن عادته ، فجرى فى الجلد قائمًا غائراً ، وقد عوّد الناسَ أن يجرىَ عليه زاحفًا ، فى زحلقةٍ مهّدَ لهـا من انبسط فى طريقه من رُغاء كثير .

وتصورتُ دكاكين الحلاقين وقد خلتْ فى الصباح التالى من زوّارها . أو تصورت الزوّار قد أقبلوا ، وأيديهم تتحسّسُ رقابَهم .

وصحوتُ من هذا الخاطر فوقعتْ عينى على وجه الحلّاق فى المرآة ، فوجدته يبتسم . ولقد كان ابتسم من قبل فما اهتممت لابتسامته . ولـكن هذه الابتسامة ، بعد حديث الموسَى ، جعلتْنى أعود فأنظر فى وجهه مَلِيّا . أهذه ابتسامة رجل عاقل ، أم هى ابتسامة مجنون ؟ وتراءى لى أن الرجل عاقل ، لا شك فى هذا . فحَمِدْتُ الله . ولـكنْ لماذا هذه الابتسامة التى جاءت فى غير أوانها ؟ لعلها ظاهرة إيحائية . انتقالُ فـكرةٍ من رأس إلى رأس . وقلت : فـكرة كهذه قد تُلحّ على رأس الحلاق العاقل إلحاحًا

فتجعله يفعل كما يفعل المجانين . ولكنى طردت الخاطرة من رأسى وقلت بُعداً لكِ من خاطرة .

**

أَلَا ما أسرعَ ما تتوارد الخواطر عند الحلاق . لقد أقنعنى تواردها بالقضية الفلسفية التى تقول : إن الطبيعة لا تقبل الفراغ .

ونظرتُ فى المرآة ، فوجدت عن يمينى جاراً ، قام عليه حلّاقٌ آخر . فقلت : فكِّرْ فى جارك فالتفكير فيه أسلم عاقبة . ونظرت إليه ازوراراً ، فإذا صاحبنا الحلّاق يقص رأس صاحبه ، يقص شعر رأسه ، فتجلت لى صورةٌ رائعة من صُوَر التعاون بين الناس . فلولا هذا التعاون ما استطاع أحد أن يقص شعر رأسه . لا بد فى هذا العمل من فاعل ومفعول ، ولا يمكن فيه أن تكون أنت الفاعلَ والمفعولَ معاً . فأنت قد تتعلّم أن تحلق ذقنك ، وأنت قد تتعلّم أن تقص أظافرك ، وأنت قد تتعلّم أن ترى حتى قفاك . ولكن قص الشعر لا بد له من رجل يحمل الشعرَ على رأسه ، ورجل يحمل المقص فى يده .

وقصف المِقصّ عن يمينى قصفةً من بعد قصفة ، وعددتُ القصفات فكانت مائة . فقلت لقد فعل الحلاق بالرجل المسكين ، ما فعل الحلّاق الباچيكىّ ، برأس أحمد أمين .

ذهب أخونا الدكتور أحمد أمين بك إلى باچيكا ليحضر مؤتمر المستشرقين ، وشاء شعر رأسه أن لا يبلغ أشُدّه إلا فى هذا البلد الأمين . وعنها ونزل إلى الحلاق . وسأل الحلاّقُ بالفرنسية . وأجاب أحمد بك بالإنجليزية . ولو أنه أجاب بالعربية ما أحدث ذلك فرقا . وأجاب حيناً بنعم ، وحيناً بلا ، وقد أسلم أمر نفسه ورأسه لله . وعاد إلى الفندق برأس ، ما وقع عليه بصر أخينا الدكتور عبد الوهاب عزام بك حتى أثاره ذلك إلى قول الشعر . فقال أبياتاً أذكر منها بيتاً :

ونظر الأستاذ فى المِرايهْ فلم يجد فى رأسه شعرايهْ

أقول ، قصف صاحبى الحلاق الذى كان عن يمينى بمقصّه مائةَ قصفة . ونظرتُ ، فلم أجد رأس الرجل تغيَّر كثيراً . وقات : أسمع قعقعةً ولا أرى طحناً . وسألتُ . فقيل لى إنْ أخذ القليل على المرّاتِ الكثيرة لِزينة الرأس أسلم . فقلت ما أبلغها حكمة ، لو طُبِّقتْ فى مجالات الحياة الأخرى . القليلَ القليلَ ، ثم انظرْ ما صنعتْ يداك . أما الكثير الذى تتخطّى به الحدود . فقد يكون منه فسادٌ ليس إلى إصلاحه سبيل .

**

ولاحتْ نظرةٌ منى إلى يسارى . فى المرآة طبعاً . فما تمالكتُ

أن قلت : تبارك الله جلّت حكمته . رجل أصلع ، ومع هذا له لحية حجبتْ وجهه ، حتى نِحَلْتها لحيةً مستعارة . خطأٌ بسيط فى التوزيع أنتج كل هذا . أنتج وجهاً كرأس ، ورأساً كوجه .
وأخذت أحاضر نفسى فى سوء التوزيع وعلله ، وما جرّه على الناس من بلايا . وذهب بى الفكر فى هذه الناحية بعيداً . ذهب بى إلى سوء توزيع المؤَن فى حرب ، وذهب بى إلى سوء توزيع الثروة فى سلم وحرب ، وذهب بى إلى تلك المبادئ الجديدة التى تريدأن تهدم مانحن فيه ، فذكرتُ بها الروس . ومن الروس عُدت من جديد إلى ذكر اللحى . فعلمت أن الفكر ، كالأرض ، دوّار .

وبذكر الروس ، وبذكر لحاهم ، ذكرت أجيالا من الزمان كانت اللحى لها فيها دولة ، ولها صولة .

وكانت شارةَ الذكورة . حتى إن هيرودوت مؤرخ الإغريق القديم ، رأى شعباً ليس لذكوره لِحًى ، فعجب ، وقال : إن الله جزاهم بأعمالهم شرا ، فجعل رجالهم كالنساء .

وأرسل الإغريق ، وأرسل الرومان ، وأرسل البابليون والأشوريون والفينيقيون ، أرسلوا جميعاً لحاهم وشذّ المصريون . فكان حلق الوجه والرأس سنّة الكبراء . ودخل يوسف على فرعون ، فحلق ، وحلق معه أهل البلاط جميعاً . وكان يوماً للحلاقين مشهودا .

وكانت اللحية ، فى الشرق عامة ، منذ كان الشرق ، مَناطَ الشرف ومَلمس الكرامة فى الرجال . كان إذا أراد رجل إهانة رجل ، شدَّه من لحيته . وإذا أراد قوم أو أراد سلطان فضْحَ رجل ، والتشهيرَ به حلقوا ذقنه غصباً وحملوه بين الناس .
وكان الرجال عند الحزن يحلقون لحاهم طوعًا والرؤوس . وخالف المصريون الناس ، فهم إذا حزنوا أرخوا اللحاهم وأرسلوا شعورهم .

وكان إذا مسَّ أحد القدماء ذقنه الطويلة العريضة ، يمسحها بكفه ، ثم يمسحها ، عَلِمتَ أنه سوف يقول قولا حكيما .

وحرب قامت بين التتر وهم لا لحية لهم ، والفرس ، وهم أهل لحى ، من أجل أن الفرس أبوْا ، وهم الشعب المسُود المحكوم ، أن يذهبوا بلحاهم ، وهى فى ذلك الزمان شارة السيادة .

وغزا الرومان بريطانيا ، وكانوا قوما حليقين . وغصبوا أهلَها على الحلق ، فكان منهم من فضل الخروج بلحيته عن بلده ، وآثر النفى مع النجاة بهذه الُخصلة العزيزة مما تُنبت الذقون .

والإسكندر الأكبر أمر جنده بحلق اللحى ، وعلّل ذلك بأنه لا يريد العدوّ أن يمسكهم منها .

وقيل إن سليم الأول كان أول خليفة حلق لحيته . وسأله وزيره الأول فى ذلك ، فقال : حلقتُ لحيتى كى لا تجرّنى أنت منها يا وزيرى العزيز .

وبطرس الأكبر ، قيصر الروس ، أفزعه شيوعُ اللحى فى قومه ، مع ضخامتها ، وتَخفيهم وراءها ، فأمرهم بحلقها ، وفرض عليها الضرائب يدفعها من اعتزّ بلحيته فأراد أن يُبقىَ عليها .

وفى انجلترا ، فى عهد غير بعيد ، جُعلت الضرائب على اللحَى وجعلت درجاتٍ بطول اللحى وقصرها . ولكن الضرائب لم تفلح عند ذاك فى انجلترا ، فظل أهلها يحملون لحاهم ، ودفعوا الضريبة عن طَوَاعِيَة .

**

وأيقظنى من هذه الخواطر المتلاحقة صوت يصيح بى : نعيمًا !

وصحوتُ ، فإذا هو صوت الحلاق .

قلت : أنعم الله عليك وعلى أصحابك ، الذاهبين منهم واللاحقين .

وقمت عن الكرسى العتيد ، أحرّك رجلاى من جمود أصابهما من طول القعود .

# للزعامات عورات ، فاستروها

يحكى الإنجليز فيما يحكون، أن ثلاثة أعضاء ، فى مجلس النواب البريطانى ، تلقَّوا على انفراد ، فى صبيحة يوم ، برقيَّةً من مجهولٍ يقول فيها :

اللعبةُ انفضحتْ !

فما أضحى ذلك اليوم ، حتى كان الثلاثة قد اختفَوْا ، ويبحثُ أصدقاؤهم عن أثر لهم فلا يجدون .

واتّضح بعد ذلك أن الذى أرسل هذه البرقية، إنما أرسلها مِزاحاً ، فكان لها هذا الأثر الغريب .

ولستُ أحسَبُ أن هذه القصة قد وقعتْ حقا . وسواء وقعت ، أو هى لم تقع، فمغزاها مفهوم ، والغرض الذى رَمَى إليه صاحبها معلوم . إنها العقيدة الشائعة عند الناس فى ذمم الناس ، وجّهوها هذا التوجيه الخاص ليتندّروا بها على فئة فى الناس خاصة .

> ولقد أعرف كبيراً أو زعيما ، وأسمع منه ، وأقرأ عنه ، فأرى فى ثنايا كل هذا عِثار الرجل الذى خلق من طين ، وحمأ مسنون

**

وقصةٌ أخرى ، مما وقع حقا وصدقا ، سمعتها من أمريكى :

أَسقُفٌ معروف بين قومه بالتقوى والصلاح ، وإلى جانب التقوى والصلاح كان منه كرمٌ وخير ، ومعونةٌ للعاجزين والعاجزات ، وكان له عند الجميع احترام وفير . استيقظ يوماً ، وأفطر وتهيأ للخروج ، ثم تمهل ليقرأ بريد يومه . وقرأ : فهذه دعوة إلى حفلة خيّرة ، وهذا رجاء لحضور مأدُبة زاخرة ، وهذا قِسٌّ يدعوه إلى أن يخطب فى كنيسته ، وهذا عينٌ يرجوه أن يترأس حفلا لجماعته . ولكنّ خطاباً من بين هذه الخطابات هزّه هِزّةً عنيفة . ولم يكن فى الخطاب كلمات كثيرة . كان به :

لقد عرفوا كل شىء ، فانْجُ بحياتك .

ونجا الأسقف بحياته ، فلم يأت مساء هذا اليوم حتى كان قد اختفى .

وإلى اليوم يبحثون عن سبب هذا الاختفاء .

قال قوم إنه كتابٌ فى الحب الصريح ، استعار له اسماً غير اسمه ، وقال آخرون غير ذلك . ومهما يكن من أمر هذا الأمر الذى دعاه إلى الهرب ، فهو على التحقيق لا يأتلف مع وقار الأسْقُف ، ولا ماعُرِف عن شخص هذا الأسقف بالذات ، بحسبانه إنساناً ، من طيبة وكرم وخير .

ولم يقل لنا أصحابُ هذا الكتاب ، كتاب الحب المكشوفِ ،

متى كتبه كاتبه . أكتبه الأسقف الكهل ، أم كتبه الأسقف الشاب ؟ وحتى هذا لا يغيّر من الحكم شيئاً ، ولا يرفع محتومَ القضاء ، فالأسقف ينتظر الجمهور منه أن يكون أسقفاً فى شبابه ، وفى صباه وفى طفولته ، وإلا فهو ليس جديراً بالمنصب الرفيع الذى يشغله .

**

وأنا وأنت أيها القارئ ، ماذا يكون حالنا إذا أتى آت يفتّش فى حاضرنا عن « لعبة » يفضحها ، أو يفتّش فى ماضينا عن كتاب فى « الحب المكشوف » كتبنا .

لا تلبسْ لى الجُبّةَ بأكمامها الضافية ، ولا تضع على رأسك العمامة الكبيرة بلفائفها البيضاء الزاهرة ، لتقول لى : إن حاضرك أصفى من ماء المزن ، وإن ماضيك أبيض من ندائف القطن .

إنك لو كنتَ كذلك ، وكنتُ أنا كذلك ، وكان الناس كذلك ، ما كان هناك شُرْطةٌ ولا كانت نيابة ولا كان قضاء ولا كان قانون .

هذا فيما يختص بالدنيا . فيما يختص بأشيائها التى تُرى وتُضبَط وتفتش . دعْ عنك تلك الأشياء الأخرى التى يقوم عليها دون العين حجاب ، ويطلبها الفهم فيُسدّ فى وجهه من دونها باب ،

والتى تختص بها الآخرة تحقيقاً وقضاء وحكما ، تلك التى عزّت على القانون فكان من أجلها فى الدين عقاب ، وكان ثواب .

إنه يجب علينا أن نعترف أولا أن فى الناس جريمة ، وفى الناس جنوحا إلى جنحة ، وفى الناس حبّ الحرام . ثم بعد هذا الاعتراف يجب أن نعترف اعترافاً آخر هو لهذا الاعتراف الأول استكمال واستتمام . يجب أن يعترف أن الناس يجب أن تتعاون على إخفاء ما فى أنفس الناس من جريمة وجنحة وحب للحرام . إنه السّتر الذى يطلبه الناس كلما دعوْا ربّهم: يا ستّار ! وقد يستر الله خَلّةً من تلك التى عناها الشاعر حين قال : —

رأى خَلّتى من حيث يَخفَى مكانُها
فكانت قَذَى عينيه حين تجلّتِ

وقد يستر الله عورة ، وقد يستر الله حرمة . ولكن أكبر ما يدعو الناس اللهَ فيه أن يستر خلّة النفس وعورتها وزلّتها .

**

وإن احتاج الأصاغر لهذا الستر بعض احتياج ، احتاج الأكابر له أشد احتياج . إن الرجل الصغير افتضاحُهُ لا يكاد يَسُوء أحداً غير نفسه . ولكن افتضاح الرجل السيد الكبير يُسيء إلى البيئة التى هو كبير فيها ، ويُسيء إلى المعانى السامية

والمُثل الكاملة التى أودعها الناس فى هؤلاء الأكابر الأسياد .

وأكبر الأكابر الزعماء ، إن الجماهير لا بد أن تَعْبُد ، وهى تعبد الله . ولكن الله بعيد ، أو هكذا هم يرونه ، والزعيم قريب ، والناس تحب أن تعبد القريبَ الذى تراه العين . من أجل هذا يجب أن نُطهّر الزعماء أكبر تطهير ، وأن نطهّر منهم الأنفس كل يوم ، كما نطهر الأجسام الإنسانية التى لا يفتأ يخرج منها كل يوم ما يحتاج إلى عناية ورعاية .

وأنا إن طلبت الستر للأحياء من الزعماء ، طلبت الستر الأكبر للأموات منهم ، أولئك الذين ذهبوا فى التاريخ مثلا . وهذا أيسر ، لأن طهارة الأموات لا تكون إلا مرة ، ثم لا يأتى بعد ذلك كل يوم ما ينقضها . إن الزعيم الميّتَ فى كل أمة ، أقربُ الأشباه إلى الصنم . والحجر تغسله فلا يبقى لك غُسلا ، وتُلبسه الحريرَ وتَصْبغه بماء الذهب وهو لا يرفض لك أمراً . وأنت تضع على فم الحجر ابتسامة فتعيش إلى الأبد . وأنت تُودع وجه الحجر ما تشاء من معانى الطيبة ، وسيماء الطهارة ، ورضاء الضحيّة وتسليمَ الشهيد ، فتحيا على الأحقاب ، وتُطلّ على الناس كلما تجدّدت الناس وتجدّدت القرون ، فلا تزيد الحجرَ إلا قداسةً ، ولا الناس إلا تقديسا .

ولقد أعرف كبيراً أو زعيما ، وأسمع منه ، وأقرأ عنه ، فأرى فى ثنايا كل هذا عِثار الرجل الفانى الذى لم يُخلَق ابقاء ، الرجلِ الذى خلِق من طين ، وحَمإٍ مسنون . وأشمّ منه رائحة الحمْأة ، فأتقبّلها على أنها من بعض صفة هذا الطين . ولكن ما هكذا الناس ، وما هم بمستطيعيه ، وما هم لو اطلعوا عليه بمُحبِّيه . إن الحمأة يجب أن تُضمّخ بالعطر لتَسْطعَ منها فى أنوف الناس رائحة الفلّ والياسمين .

فعلى الزعماء أن يُعينوا الناس على ما هم فيه ، وأن يُعينوا الكُتّاب فتجرىَ أقلامهم بالصدْق كثيراً وبالكذب قليلا ، وأن يُعينوا الفنّانين ، صُنّاعَ الأصنام ، على أن يُصوّروهم فى الحجر ، من بعد ذهابهم ، صوراً فيها الكثير من الأمانة والقليل من التزييف والتمويه .

# تعلمت حكمة . . .

## من حمار وجَزَرَة

وقد أردتُ أن أقول : من جزرة وحمار ، ولكنى عطفت على الحمار فقدّمته ، لما بيننا وبينه من قُرْبَى ، هى أقرب إلينا من قربى الجزر فى جدول الأحياء.

ولست أدرى كيف نشأت هذه العادة الظالمة عند الناس .

إنهم ينظرون إلى أسفل دائماً كلما نظروا إلى الحمار. ينظرون إليه نظرة احتقار وامتهان .

إن الفقير يحتجّ على الغنىّ ، وكذلك يحتجّ الوضيع على الرفيع ، بأن الوضاعة والرفعة ، والفقر والغنى ، حوادثُ من عمل المصادفات ، لا يَسبقها تقديرٌ ولا تدبير.

فنُطفة الفقير جاز أن تخرج من صُلب غنى ، ونطفةُ الوضيع جاز أن تخرج من صلب رفيع . وكذلك الغنىُّ جاز فى حكم الأقدار أن يولد فى بيت بالتعاسة مرقوم ، كما جاز فى حكم الأقدار أن يولد الرفيع

> إن الرجل منا له أيام ثلاثة ، يومه ، وغده ، وأمسه وهى كالثلاثة الأبناء يبذل لها الأب من فكره وذكره نصيباً واحداً

فى بيت بالوضاعة موسوم .

وإذا نحن مَدَدنا هذا المنطق فخرجنا به عن الدائرة الإنسَانية ، إلى الدائرة الحيوانية ، لقلنا إن المخلوق الذى يولد إنساناً ، جاز فى حكم الأقدار أن تكون نطفته نطفة حمار ، كما جاز أن تكون نطفة الحمار نطفة إنسان ، كما جاز أن يكون قرداً أو فأراً ، أو حتى جزرة : كلها تأتى بالتوالد ، وعلى قوانين ، على بعد الحقول التى تعمل فيها ، متشابهة . إنها نظرة ديمقراطية ، تتمثل فيها نظرة المستقبل الذى هو لا بد آت ، يجب أن يحسب الإنسان حسابها من الآن .

وعلى اختلاف الأوضاع الحاضرة ، وتباين القِيَم ، فلا شك أن كثيراً من المفكّرين أدركوا ما يجمع بين الإنسان والحمار من أشياء عديدة . خذْ مثلا الطعام . إن الحمار يأكل البرسيم ونحن نأكل الحلبة والملوخية ، وهو آكل الحلبة والملوخية ، لو أنه استطاعهما ، فنحن الألى نمنعه منهما ، ونحن نأكل الملوخية ترفعاً عن البرسيم ، ولو شئنا لأكلناه . وأعرف مَن أكله مطبوخاً فاستطعمه ، حتى عرف أنه البرسيم ، فبرزت صِلَتُه بالحمار بروزاً غيرَ محمود . والتِّبْن يأكله الحمار ولا يأكله الإنسان ، لأن الأول يستطيع هضمه ، ويعجز الثانى : وهذه مِيزة للحمار لا بد أن

نضيفها إلى جدول فضائله . ومن فضائله أنه لا يكاد يوجد طعام يأكله الإنسان لا يأكله الحمار ، إلا أن يكون لحما ، وفى هذا يمتاز عنا الحمار لأنه يتعفف عن أن يأكل لحم زملائه فى الحياة : أما نحن فنأكل لحوم الزملاء فى الحياة ، ونأكل حتى لحوم الإخوان فى الجْنس ، ومن القبائل الإفريقية من يأكلون شيوخهم ، ويأكلون مرضاهم ، وتسألهم فى ذلك فيجيبون بمنطق لا منطق بعده . إنهم يقولون إن الشيوخ للفناء ، والمرضى للدود ، ونحن أَوْلَى بهذا اللحم من الفناء ، وأولى به من الدود . فبالله عليك هل تجد فى هذا المنطق ما يُعاب ؟ إنه لا شك جائزٌ فى حكم العقول ، وواقعٌ موقعاً طيبا فينا ، تَقْتضيه فروضُ الاقتصاد وقوانينه فى هذه الأيام . فإن كان فى الأحمرة عيبٌ يَنزل بها عن مرتبة الإنسان فهى أنها ليس لها من العقل ما تدرك به جمال هذا المنطق .

وَكَشِبهٍ فى الطعام ، تجد أشباها عديدة بين الحمار والإنسان فى الأجسام .

وكذلك تجد أشباها عدة فى الطباع .

**

ولكن الشبه الدقيق الذى أكتب من أجله ، تراءى لى عندما وجدت ولداً من « أولاد البلد » يضحك على حمارٍ بجزرة .

كان الحمارُ حمارَه وكانت الجزرة جزرته . وكان مع الولد عصا طويلة وضعها على عنق الحمار ، وضعها بطوله ، ثم ربطها بعنقه ، فامتدت أمامَ رأسه متراً . فربط فى طرفها ، أمام عين الحمار ، جزرة . ورآها الحمار تتأَرجح أمام عينيه فأسرع فى الخطا لينالها . ولكنّها لاتقترب . إنه كلما أسرع أسرعتْ ، وكلما أبطأ أبطأتْ ، والمسافة بين فمه وبينها دائماً واحدة . ولكنه ظل يدأب .

وستضحك وتقول ما أغباه ! أليس هذا حماراً ؟

وسأضحك وأقول ما أغباه ! إنه لا شك حمار .

ولكن كم من الناس من على رأسه مثل هذه العصا ؟ وكم من الناس من تتراقص أمام أعينهم مثل هذه الجزرة ؟ وكم منهم من يُصبحون ويُضحون ، ويُمسون ويباتون ، ينظرون إلى الأمل الحلو الذى لا ينال . وهم يسعون ويسعون ، والأمل الحلو يبعد عنهم اليوم بُعدَه فى أمس ، وَيبْعد عنهم غداً بُعدَه عنهم اليوم .

* *

عرفت رجلا بدأ حياته اجتهاداً ؛ ونصب لنفسه غاية أن يكون فى يسر من حاله ليرتاح من بعد ذلك . وظل يعمل فيكسب . وظل يكسب فيقتصد . ومرت السنون فترا كمتْ عنده ثروةٌ حَسِبَتْهُا هى غايته . فإذا بالغاية تزيد كلما زادت الأيام ،

وتبَعُد كلما بعدت الأيام ، وعلى قدر ما بعدت . وإذا الرجل على حاله الأول من الدأب ، وعلى حاله الأول من الكسب ، وعلى حاله الأول من التوفير والتقتير . وعلى أمله الأول في يسر حال قد توفر يُسرها ، وعلى طلبه الأول لراحةٍ قد تيسّرتْ له كل أسبابها .

مثل هذا الرجل يعيش ليوم لا يمكن أن يجيء ، ويجرى وراء جزرةٍ لا يمكن أن تُنال .

مثل هذا الرجل يعيش في حاضره ، ولكن لمستقبله . وقد يجيء المستقبل المطلوب المرغوب ، ولكنه لا يلبث أن يجيء حتى يصبح حاضراً ، له من بَعدِه مستقبلٌ جديد بعيد ، وهكذا دَوالَيْك .

ومثل هذا الرجل الذى تعوّدتْ عينه النظَر إلى أمام ، إلى الأفق البعيد ؛ يتعب عينَه وبُجهدها أن تَنثنِي ، فتنظر إلى ما بين أرجلها .

أو هو قد طلب غايةً ، واتّخذ لها وسيلة . وكان يَحسَب اللذّةَ في بلوغ الغاية ، وإذا به يجدها في سُلُوك الوسيلة . فأصبحت الوسيلة بذلك غاية في ذاتها ، ومنع من الغاية الأولى أنْ تكون غايةً ، أن الصراع ينتهى ببلوغها .

أو هو طالب السعادة ليَنْعُم بالسعادة ، وفى دخيلة نفسه غيرِ

الواعية أنه لا يريد سعادة ، ولكنَّه يريد أن يأمن غدر الأيام . فيقضى أيامه ولياليه يُحضّر لمعركة الأيام ، فيجمع العُدّة ، ويَدّخِر الذخيرة ، لحرب لا تكون أبدا .

هذا رجل قد غفل عن يومه لغده .

* *

ومن الناس من يغفل عن يومه لماضيه . فهذا قد تعلقتْ جزرته ، لا أمامه ولكنْ خلفه ؛ فهو دائما ينظر إلى الوراء ، إلى حبيبٍ مضى يقطع عليه الأيام نحيباً ، أو عزيز انقضى يملأ قلبه منه أسى فلا يكون به مكان لشيء سواه . أو هو ينظر إلى الوراء ، إلى خصومة كانت لا تزيدها الأيام إلا ذِكْراً . أو إلى حفيظةٍ وقعت ، لا تزيد الأيام نارها إلا حطبا ، فيصبح ويمسى وكلُّ ما يطلب من الدهر نيلُ الثأْر والتشفِّى . أو هو ينظر إلى خيبةٍ كانت ففاتت ، ولكنه يجعل من حكايتها حديث الحاضر الذى لا يفرغ .

إن الرجل منا له أيام ثلاثة ، يومه ، وغده ، وأمسه . وهى كالثلاثة الأبناء يجب أن يبذل لها الأب من فكره وذكره نصيباً واحداً ، فإن هو مال ، فإلى يومه ، يعمل فيه ، ويلتذ به ،

ويستمتع بالذى حضره من أسباب المُتْعة ، فلا يدع متعةَ حاضره رجاءَ متعة مُستقبله ، أو يأذن لغيمة كانت فى أمسه ، أن تدخل إلى سماء يومه فتَذهبَ بصفائها .

ما مضى فات والمؤمـــل غيب

ولك الســـــاعة التى أنت فيها

# لذة الحرام

إلى الذى سألنى : كيف أكون طبيبا ناجحا ؟ وإلى الذى سألنى : كيف أكون محاميا ناجحا ؟

أقول ، بعد أن نظرت فى حظوظ الناس ، بل سلنى : كيف أكون لصّا ناجحا ؟

**

إنى أكره الفشل فى كل شىء ، ويستهوينى النجاحُ دائما ، ذلك أن النجاح فى ذاته لذّة وحركة وضياء ، والفشل فى ذاته ألمٌ وخمود وانطفاء . فتوخَّ النجاحَ يا صاحبى فى أى عمل تعمل ، وأى تَبِعةٍ تحمل . اُطلبْ أسبابه ، وهذا كل ما يُراد منك ، وعلى الله من بعد ذلك التيسير والتوفيق .

وإذا وفقك الله لتكون لصّا ، وهيأ لك أسباب السرقة ، وأودع فى نفسك الكفايات العالية ، والصفات النادرة ، للنجاح فيها ، فلا تقنع بالقليل الحقير ، واطلبْ الكثير الخطير . إن المسألة

> وأنا أعيذك أن تسرق لأنك فى حاجة إلى ما تسرق ، فهذه سرقة تأتيها العامة ، وأنا لا أريدك أن تكون عاميا فى سبيلك إلى العلا !!

مسألة همّة ، فلا تنزل بهمتك إلى الأمر الصغير ، وارتفعْ بها إلى الأمر الكبير . إنى أحب الهمّة أن تكون قعساء شمّاء ، كان ما كان ما تهدف إليه من أشياء .

وإذا سَرَقت فلا تسرِقْ مباشرة ، ولا تسرق علنا ، ولا تسرق حيث يراك الناس فترتفع وراءك الأصوات . إن هذه هى السرقة فى أخشن صورها ، وأكثر أشكالها ابتزالا وهى خشنة مبتذلة ، لحقتْ بك الكلابُ النابحة أو لم تلحق . أما السرقة التى أريدها لك فهى السرقة اللبِقة . السرقةُ التى فيها كثيرٌ من الخفاء ، وكثيرٌ من الذكاء ، وكثيرٌ من الحذق والدّهاء . السرقة التى يرتفع بها الحذق والذكاء إلى أن تكون فنّا . إن امتداد يدك إلى الأمتعة والأموال ، هكذا فى وَضَح النهار ، شىء يستطيعه كل إنسان ، فليس فيه ما يُعجب أو يثير ، ولكنْ غيرُ ذلك سرقةُ الفنّان . إن الفن يرتفع بالدنىء ، ويعلو بالخفيض ، ويجعل المستقبَحَ المستهجَن مستملحا مستباحا . أُنظرْ إلى العُرْى . إنه شىء يأباه الناس ، ولكنّه فى يد الفنّان ، وبريشته ، شىء تفتّح له العيون وُسعَها ، وتمتلىءُ منه حتى ترتوى ، وتفعل ذلك إعلانا ، فلا خشيةَ ولا ملامة . وانظرْ إلى الرقص . لو أن الراقصة خرجت بهذا الثوب الرقيق ، الذى خفّ حتى شفّ ، إلى الطريق

حلق عليها الناس ، وحلق البوليس ، ولكنها تظهر هكذا ، وعلى أرقَّ من هكذا ، على المسرح ، وألوفُ الناس من الأكابر والأكارم ، مطمئنون فى مجالسهم ، ينظرون ويستمعون . فما الذى غيّر الحال وبدّل الأثر ، وجعل من الحرام حلالا ؟ إنه الفن ، إن فى الرقص حذقا ، وإن فيه جمالا ، خرجا به عن حظيرة المستهجَن المكروه .

وكذلك أنت فى سرقتك ، تستطيع أن تجعل منها ، بالذى تُودع فيها من حذق ومهارة ، فنّا جميلا . واعلم أن الفن الجميل لا يتذوقه كل الناس ، إن هناك دائما أرستقراطية خُلقتْ لتتذوّق الفنون . وللسرقة خاصة ، وهى فنٌّ جميل ، أرستقراطيةٌ من نوع ، تستطيع أن تقدّر لك ما بذلتَ فى مجهودك المشكور من حذق ومن مهارة ، وأن تلمح ما فيه من لمحات فى الفن نادرة .

**

وإنى أعيذك أن تسرق لأنك فى حاجة إلى ما تسرق ، فهذه سرقة عادية يأتيها العامة ، وأنا لا أريدك أن تكون عاميًّا عاديا فى سبيلك إلى العلا . لا أريدك أن تسرِق لأنك جائع ، ولا أن تسرق لأنك عارى . لأن الدافع هنا ، من جوع أو عرى دافع رخيص بدائىّ ، يدل على طبع بسيط . وإنما أريدك أن تسرق ، على الغنى وعلى اليسر وحسن الحال ، فهذه هى السرقة

لله ، لا لنفسك . ذلك أنك غير محتاج . إن السرقة عندئذ تكون للسرقة ذاتها وعمل الشيء لذاته هو أحسن شيء فى الدنيا . ألم تر أن الحب قد يكون لشهوة ، فيُبتذَل . ثم يكون لذاته، يكون لغير غاية ، فيُمتدَح ، ويسمّى عُذْريّا . فأنا أريدك أن تمارس السرقة عذريةً كذلك. وأنت ، على السرقة ، مع الغنى ، تستطيع أن تحتلّ أى مكانة فى المجتمع تريد ، وتذهب إلى أى ناد نخم تحبّ ، وتحضُر أىّ الحفلات تشاء . ولا تجد إلا ما يسرّك . لأن الكلّ يعلمون أنك إنما تمارس هذا الأمر رياضةً وهوِيّة ومعاذ الله أن يسيئوا رجلا هاويا رياضيا . وأكثر من يلقاك رياضىٌّ صميم .

ولا يخذلْك عن السرقة ، بحسبانها فنًّا راقيا ، ورياضةً حاذقة ، زمانٌ أو مكان . ولا وضعٌ تكون فيه من الحياة . ولو أن السرقة بالطبع أيسرُ وأخصبُ وأكثر أدواراً فى الموضع العالى . وهى بالكهولة أجدر منها بالشباب . فأكثر من أعرف من اللصوص المختارين الممتازين كهول . ذلك أن الكهل يكون قد اطمأن فى الحياة ، ويكون قد اتسع له الزمن لإيجاد العلائق والروابط ، واحتلال المراكز العالية ، تلك المراقب التى يُشرف منها المرء على الناس ، فيراهم ولا يرونه ، ويكون قد اتسع له الزمن كذلك

لإذاعة الثقة من حوله وإشاعة الاطمئنان عند جمهور العامة الذين لا يمكن أن يرتفعوا أبداً إلى مستوى يُدركوا فيه قيمةَ الفن فى مظاهره المختلفة ، دعْ أن يُدركوه فى السرقة ، وهى فى أسمى مراقيها.

نعم الجمهور . إنه عدوّ السرقة ، وعدوّ الفن ، فاحتطْ لنفسك يا صديقى لدى الجمهور أىَّ حيطة . أَحِطْ نفسك بقصَّة بارعة يثور لها الشعور وتثور العاطفة ، أشِعْ عن نفسك أنك من بيت مجد عريق ، له فى المجد ضروب وفى العراقة دروب ، واتركْ تمام القصة لخيال الناس ، وللشائعات تَسرِى فيهم . وعندئذ سوف يقول الناس إنه من بديهيات الأمور أن يكون الثراء الكثير حيث توجد العراقة ويوجد المجد الوفير . وإنْ عزَّكَ هذا ، لأن دلائل كثيرة تقوم تدلّ عليه وتنفيه ، فأطلق من حولك الأقاصيص تحكى ، بأنك جئت من البيت الفقير الوضيع ، وأن أمّك كانت تَغلى لك الماء بالحصى ، وأنت طفل ، لتُلهيَك به عما بك من جوع : وعندئذ سوف يقارن الناس بين ماضيك وحاضرك ، فيقولون ما أبرعَ وما أبدع ! إن الناس تُحب دائماً أن تَسمع المعجزات ، وأن تَرْوِى المعجزات . وأنت إن قلت لهم إنه ليس فى الأمر معجزة ، فسوف لا يصدّقونك . فدعْهم بالمُعجزات وذكرها يَنعَمون .

فإذا حدث مالا أرجوه لك أبداً ، فانفضح المستور ، وانكشف

الخبىء ، وقال الناس هذا اللصّ فأمسكوه ، فلا تهلعْ ، ولا تجزع . أما الحاضر فسوف يتكفل به المال الوفير . وأما المستقبل فسيضمنه لك قِصَر الذاكرةِ عند الناس . إن الناس تنسى ، وإن الجمهور ينسى ، والحمد لله . ولسوف يمتدحك الجمهور الذى ذمّك ، وسوف يرفعك فوق رأسه الجمهور الذى كان على الأرض حطّك ، وفى ترابها مرّغك . والزمان الذى جرح سيعود فيأسو جراحه ، ولن تجد كالزمان آسِيا .

وأخيراً ، إذا فرغ بك العمر ، وتناهت بك الأيام ، وجاءك جبريل يعتب ، فعذرُك والله حاضر ، قل له إنك ، مع كل ما جمعتَ وعدّدت ، لم تأكل أكثر مما أكل السوادُ من الناس ، لأنه كانت لك معدة واحدة ولم تكن لك معدتان ، وإنك لم تلبسْ أكثر مما لبس الكثير من الناس ، لأنه كان لك جسم واحد ولم يكن جسمان ، وإنك لم ترقد على غير سرير واحد ، لأنه لم يكن لك غير هيكل من العظم واحد تُريحه بالرقاد ، ولم يكن لك هيكلان . وقلْ له إنك خلّفتَ وراءك مائة ألفٍ كألف . فإن قال لك جبريل : ففيم كان كل هذا الجمع ؟ فقل له : لذّة الحرام ، يا جبريل ، لذّة الحرام ، وقاك الله شرّها !

# دنياك ، لا تخشها أبدا

إنك تخشى دنياك ، ولكنك تنسى دائما أنه يخشاها معك الناس طرًّا . إنك تنظر إلى هذا الضاحك فتحسب أنه يضحك للدنيا وأنت وحدك تبكيها ، وتنظر إلى هذا المستمهِل فى خَطْوه ، فتحسب أنك وحدك المستعجل فى طلبها ، وأنها أسعفته فاستأنى ، وحبستْ عنك أنت وحدك فتعجّلتها . إن الدنيا لا تختار عندما تعطى ، ولا تختار عندما تمنع ، ولا تختار عندما تُضحك ، ولا تختار عندما تُبكى ؟ ولكنها على كل حالٍ مصدرُ البلوَى بسبب هذه الريبة التى يحملها لها الناس ، وبسبب الخشية التى تضمّنتها منها القلوب .

إن السارق يسرِق ، فهل سألتَ يوما لمَ سرق السارق ؟ إن السارق يسرق فى أكثر الأمر ، لا طمعا ، ولكن رَهَبا . وما الرهبة هنا إلا رهبةُ الدنيا التى مالت عليه أو أنذرت

> إن ضحايا الفكر ، وضحايا العلم ، وضحايا الخير ، كفارات ، كالصدقة والصوم ، تكفر بها الإنسانية عن آثام من قعد وتخلف .

بأنها تُوشك أن تميل .

وإن الحاسد يحسد ، فهل سألتَ يوماً لم حسد الحاسد ؟ إنه يحسُد من سبق ، لأنه لا يكون سبقٌ إلا معه تخلف ، والتخلف يورث الحسد ، لأن معناه التقهقر فى أمور الدنيا . وهو تقهقرٌ لو دام لاستقرّ بصاحبه فى الموضع الأخير ، حيث استقرّ العجزُ واستقر الشقاء .

ولمثلِ ما سرق السارقُ ، وحسد الحاسد يتنافس المتنافس ، ويتكالب المتكالب ، ويتزاحم الناس بالمناكب ، وغايتهم مؤونة الدنيا التى يحسَبون أنها لا بد فارغةٌ ، ما تكوكب القوم عليها .

وحِرْصُ الحريص من بعد غنى ، بدأ كما يبدأ الحرص كلّه ، بالخوف من الدنيا . والغنىّ المستغنِي من بعد فقر ، قد يذكر أيامه القديمةَ فيجُود ، ويبالغ فى الجود ، رحمةً ومؤاساة لأشباه نفسه فى الناس ، ولكنه على الأكثر يذكر أيامه القديمة فيَحرِص غاية الحرص ويُمسك أيّما إمساك ، لأن خشية الدنيا تلاحقه ، ولأنه بالجُود ، قد تَعُود وإنْ بَعُدَ المدَى أيامُها السود .

**

ومن خشية الدنيا خوفُ الخائف أن يقوم فى الدنيا بنفسه فرداً .

فتحتُ المِذياع يوماً فامتلأتْ حجرتى بأغنية فيها رقصٌ وفيها طرب . وغنّتْ المطربةُ الشهيرة أغنية الرّعاةِ فإذا بها تقول: سلامُ الله على الأغنام . فما تمالكتُ أن قلت : أى والله ، سلام « عليهم » وألف سلام !

إن الأغنام من أضعف خلق الله دفاعا إنه قرنٌ لا ينفع ولا يدفع إذا نشب مِخلب أو عضّ ناب ، فهى لهذا ترى أمنها فى التجمّع والتجمهر . والتجمهر يُشعرها الأمنَ على الخطر ، ولو أمناً كاذباً . والبليّة فى الجماعة على كل حال تهون .

وفى الناس من خُلُق الأغنام التحصّنُ من الدنيا ، فى التجمّع والتجمهر . إن خشية الدنيا هى التى صنعتْ القُرى ، وصنعت المدن ، وهى التى صنعت المجتمعات وصنعت التقاليد .

إن الفرد منا فى المجتمع ، لا بد أن ينسجم بالمجتمع ، وإلاّ انفرد فأكلته الذئاب كما تأكل الخرافَ الفريدةَ والنعاج .

**

وخشية لدنيا هى التى خلقت من الرجال محافظين يحافظون دائماً على ما درجتْ عليه الدنيا من قديم . حُجّتُهم فى ذلك أنها أمورٌ خبرناها ، وطُرُق عبّدناها وأَمِنّاها ، ولا يدرى أحدٌ ماذا يَحِيق به إذا هو خرج عن الطريق المعبّد الأمين .

إن الزارع محافظ لأنه يخشى الدنيا . إنه يزرع كما زرع

آباؤه ، ويرضى من الحَصاد ما رضى آباؤه . وزرعوا فأكلنا ، ونزرع ليأكل كل مَنْ بعدَنا ، وعلى أنماطٍ واحدة لا تتغير أبداً .

والصانع يصنع كما يصنع أبوه لأنه يخشى الدنيا . إنها بضاعةٌ أَلفها السوقُ وألفته . ولو أصابها تغيير أو تبديل ، لضلّت سبيلها إلى السوق . ولو جاءتْها ، جاز أن يُنكرها الناس ، فيَحيق بصاحبها الضيق ، أو لعلّه الخراب . وما أغناه عن ضيق ، وما أغناه عن خراب !

والمدرّس والمهذّب ، وبائع العلم وناقل الفكر ، يخشى الدنيا ، فيؤدى واجبه كما أداه السابقون . عُمْدته الكتب فهى إرث السنين ، وفيها حكمة القرون ، إنْ قال قولا أرجعه إليها ، أو صدع برأى عَمَدَهُ بنصوص منها . والعقل عنده قديم ، وليس عنده فى الإمكان أبدع مما كان . وكان أصدقَ فى التعبير عن نفسه لو قال ، أنْ ليس فى الإمكان آمن مما كان . إن العقل إذا أتى بجديد فعليه وِزْر جِدَّته ، فالناس أعداء ما استجدّ . ففى الاستجداد الأذى ، وضياع الدنيا ، وقد يكون مع ضياعها ضياع الدين . فالانسجام إذنْ خير ، كنْ مع القطيع دائماً تأمنْ وَحشةَ الفرد وأذى الطريق .

وأعدَى الأستاذ طلابه فخشُوا من أذى الطريق ما خَشِى ،

فهم يحبّون أن يأخـذوا الدروس تلقيناً ، ويحبّون أن يُعطَوْا نصوصَها إملاء .

**

إن الذى يترك الطريق المعبَّدة ، إلى طريق غير معبدة ، أو إلى صحراء لا طريقَ فيها ، رغبةً فيما هو خير ، واعتقاداً منه أنّ فى الإمكان أبدع مما كان ، قد يَطُوف من صحرائه مطافاً بعيداً ، يرجو فى آخره ركائز الذهب ، فلا يجد إلا العطب . فاحتمال وقوع العطبِ هذا هو الذى أخلد بالناس إلى السلامة . إنها خشية الدنيا ، وخشية أن تُقلَب الراحة تعباً ، أو تنقلب الحياة مأْتما .

ومع هذا فلولا أقوامٌ آثروا التعب على الراحة ، وقلقَ الحياة على استقرارها ، وتحدَّوا المآتمَ أن تكون ، ما كان فى الدنيا تجديدٌ ، ولا كان لبنى الناس تقدّم ، ولبقيتْ لهم ، من حيثُ النفعُ المحضُ ، رفاهيةُ الجحور الأولى فى الصخور . إن الدنيا تقدمتْ بالمغامرة ، وما غامر من خاف الدنيا . والمغامر ثوابُ العالَم ، ومن أجرى العالَم ، فى نجاح أو خيبة . إن ضحايا الفكر ، وضحايا العلم ، وضحايا الخير ؛ كفّاراتٌ ؛ كالصدقة والصوم ، تكفّر بها الإنسانية عن آثامِ من قعَد وتخلّف ، وخاف الحياة وخشى الدنيا .

**

ولَقِيتُ صاحبي في الطريق :

قلت : إلى أين ؟

فابتسم وقال : إلى ما تَحمد أو لا تحمد ، فهل تَصحَبني على الخير والشر ؟

قلت : أفعل ، وليكن قضاء الله :

وسرت مع صاحبي ، فإذا الغاية منزلٌ لامرأة تكشف الحُجُبَ عن الغيب . وكانت ذاتَ صيتٍ وسُمعة حسنة . ودخلت البيت وأنا أتمثّل بيت أبي تمام :

تَخرّصٌ وأحاديثٌ ملفَّقة ليستْ بنبعٍ إذا عُدَّت ولا غَرَبِ

ووجدت في البيت زحاماً . أقواماً عدة ينتظر كل فرد منها دوره . لم تَشْغَل ضاربة الرمل والحصى بالى ، بمقدار ما شغلتْه هذه الوجوهُ القلقة المترقّبة ، وقد علاها صفرة الجزع وشحوب الخوف . إنهم يخشون دنياهم أو يرجُونها ، ومن أجل هذا جاءوا يستفتون . نظرةٌ واحدة من طرف الستارِ تكفيهم ، وتُطمئِنهم على الغد المخُوف .

وساءلت نفسي : إذا انكشف الغيب ، وشُقَّتْ كل حُجُبه ، فماذا يكون بعد انشقاقها ؟

ينكشف إما عن مستقبلٍ أسودَ حزينٍ يتجرَّع المرء غُصَصَه ،

ويَحْيا مرةً قبل أن يكون ومرّة حين يكون ، أو مستقبلٌ أبيض زاهٍ يذهب انكشافه بالذي فيه من زَهْو و لذي فيه من بياض - إن لذاذة الشيء اللذيذ يكون أكثرها فى ترقبه ، وهى ألذُّ إذا وقعتْ من بعد شك ، وهى أشد لذةً إذا وقعتْ من بعد يأس . وكذلك مرارة الشيء المرّ ، أكثرها فى ترقّبه . والبلاء تبكيه قبل وقوعه .

إنْ هذا الهواء أوقع فى الأنـ ـفس أن الحِمام مرُّ المذاق
والبُـكى قبل فُرقة الروح عجز والبُـكى لا يكون بعد الفراق

* *

غدَكَ يا صاحبى لا تخفْ ولا تَحْذَرْ ، فما يُغنِي حذرٌ من قدر . اعْطِ لساعتك نصيبها من عمل ، وخُذْ منها نصيبك من مُتعة ، وأول المتع راحة البال بشفاء الضمير . فاشْفِ ضميرك بأنك عِمات أقصى ما قَدَرت عليه ، ثم تحدَّ السماء من بعد ذلك أن تُمطر الأرض لؤلؤاً أو تمطرها حُمَما .

ودنياك ، دنياك لا تخشها أبدا .

# عطشان يا صبايا!

بعد ليلة كثيرة الأحداث، مضطربةِ النوم، قُمْتُ لأتثبّت من أن الشمس على عادتها طالعة، وأن الحياة على سجيّتها جارية. وكان صباحاً من أصباح الشتاء الليلة العمياء، بلَّله وأعماه الضباب الكثيف المترامى. وخرجتُ أطلب الشمس، بين الريف والصحراء، فوجدتنى لا أريد فى هذا العَماء إيغالا، إلا لتزيد الشمس عنى احتجابا. ويتفقّد إلىّ منها أحيانا على غِرّة شعاع، فأقول هنا فما أكاد أتحسّسه وأتلمّسه، حتى لا أجدَ منه شيئاً. وأسائل نفسى، أكان حقًّا، فتقول لا كان ولا يكون، إلى حين، وإنما هو صورةُ لهفان وحُلْم يقظان وأمنيّة المتمنى.

وسمعت عند الحافّة، أو ما خلتُ أنه الفارق بين الرمل الأصفر والحقل الأخضر، قوماً بالغناء يَصدحون. إنهم قوم من أبناء الصعيد على الحفر عاكفون، كما حفر آباء لهم

> والخير والشر، أين الحقيقة فيهما؟ وأى المعاجم أفتح لتفسيرهما، معاجم الدنيا أم معاجم الدين. معاجم ما كان ويكون، أم معاجم ما يرجى أن يكون؟

من قبل ، من قرون وقرون . حفروا اليوم كما حفروا بالأمس ، ولغاية كتلك الغاية . وغنّوا اليوم كما غنوا بالأمس البعيد ، ولكن بلسان غير ذلك اللسان .

كانت الأغنية « عطشان يا صبايا ، دِلّونى على السبيل »

فقلت : « أى والله ، ما أحوجنى ، بالذى أنا فيه ، إلى دليل على سبيل . والعطشُ أحسَسْته فى تلك الليلة الماضية الثائرة ، وأحسستُ حاجةً إلى ارتواء » .

كان عطشُ هذه الفئة الميمونة إلى المرأة ، أو بهذا جرت الأغنية المشهورة . وكان سبيلهم إلى ذلك الحب .

أما طريقى إلى الحب فقد عرفتُه ، وأما عطشى إليه فقد ، على الحلال ، أرْويتُه .

ولكن بقى لى عطش لا ترويه النساء ، وبقيتُ على ضلالة لا تُخرج منها الأدِلّاء .

ذلك عطشى إلى الحقيقة ، وتلك ضلالتى عن سبيلها .

* *

فمن يدلّنى على الحقيقة فى الحياة ، لأى شىء تقمّصناها . . . لماذا بدأناها أو نبدأ ، ولماذا انتهينا منها أو ننتهى ؟ وإذا نحن انتهينا ، فلماذا نبدأ ؟ وإذا نحن بدأنا ، فلماذا ننتهى ؟ وهل حافزٌ

خفيّ غامض يدفع إلى الحياة غيرُ حوافز الجسم البيّنة العارية ... غيرُ حافزه إلى استنشاق هذا الهواء والمغالبةِ فيه إذا هو خفّ أو امتنع ، وغيرُ حافزه إلى الطعام واستمرائه ، والحرب إليه ، إذا هو صوّح غصنُه أو جفّ مورده ، وغيرُ حافزه إلى إرواء شهوةٍ ، تتولد من بعدها حاجة إلى إشباع لذة فى احتضان ماينتج عن تلك الشهوة الأولى من نِتاج ، كلٌ غايته وصلُ العيش وربط أسبابه ، ونسخ صور منه ، كما يُنسَخ الكتاب من غير كبيرِ تصحيحٍ ولا تنقيح ؟

* *

ومن يدلّنى على الحقيقة فى هذه الدوائر التى يدور فيها العيش وتدور الأفلاك ؟ الشمس تجرى فى دائرة ، وفى دائرة يجرى القمر . وفى دائرة تجرى الكواكب والنجوم . ولكثير من النجوم أقمار تدور منها فى دائرة . إن الدائرة تسيطر على الكون .

والأرض التى نحن عليها تجرى فى دائرة ، فيتعاقب عليها الليل والنهار . والعيش على هذه الأرض قد اقتبس من دورانها ، فهو يجرى فى دورة من بعد دورة ؛ فالنبات يعيش فى دورة . والحيوان يعيش فى دورة ، والإنسان يعيش فى دورة ودوائر صُبحه اليوم كصبحه بالأمس ، وضُحاه اليوم كضحاه بالأمس ، وبأمسه

الأول وبغده ، وكذلك أمساؤه ولياليه . وكذلك شتاؤه وصيفه . وهو كنهاره ، يبدأ من ضعف لينتهى إلى ضعف . إنها نقطة الدائرة التى بدأ منها ، إليها لا بد أن ينتهى . ما السرُّ فى هذه الدائرة ؟ ما السر فى هذه الدوائر ؟

والإنسان يَبلَى ولا يبلَى الزمان . وهو يَقْدُم ولا يَقدم الجديدان . فهكذا سموا الليل والنهار . وعللوا ، فقالوا : إن الدائرة رمز الخلود وقالوا : إن الحلقة المُفْرَغة لاتنتهى . وقالوا : إن الإنسان لا يخلُد فرداً ، ولكنه يخلد جنساً ، وإن الجنس ، كالنهار وكالليل ، جديد خالد ، لأنه يجرى فى دائرة . ونسوا أن الدائرة التى لا تنتهى قد تنقطع .

فأين الحقيقة فى هذا ؟ دِلّونى .. دلونى !

* *

والحظوظ ، أين الحقيقة فيها ؟

طفلٌ يولد فلا يكاد يمر عليه حولٌ حتى يموت . وآخر يولد فيُعمَّر حتى يسأم الحياةَ ويقول مع لبيد :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالَكَ يسأمِ

وتجرى الناس فى سنواتها ، فلا تدرى فى أية سنة تموت ،

ولا بأية أرض تموت ، ولا على أية حال . وذو صحة وقوة ينقطع خيطه على السلامة والطول ، وذو مرض وضعف يمتد به الخيط كأنما يصدُر عن بَكَرةٍ تتراءى قليلة ، وفيها الطول ميلٌ وميل.

وطفل يولد فيورِّثه أبواه فى العقل الفطنة ، وفى اللسان الطلاقة ، وفى الجسم البسْطة ، وفى الخلق الدماثة . وآخر يولد فيورِّثه أبواه فى العقل الغباء ، وفى اللسان الفهاهة ، وفى الجسم القصر ، وفى الخلُق الفظاظة . ومع هذا تقاس أعمالهما فى الدنيا مقياساً واحداً ، وتوزن فى الآخرة ميزاناً واحداً .

وطفلة تولد فيورِّثها أبواها عيناً نجلاء ، وأنفاً مستقيماً ، وخدًّا أسيلا ، وفماً صغيراً ، وعوداً رخْصاً نحيلا . وطفلة تولد فيورثها أبواها عيناً كأنها ثُقْبٌ فى حائط ، وأنفاً أفطسَ كأنه أنف لقرد ، ووجهاً تتوقف عنده لتُحقِّق أوجهٌ هو أم قفا ، وعوداً إذا حاول أن يتثنَّى ، صَاتَ كما يَصيت الباب العتيق . الطفلة الأولى تسير من الحياة على أطرى من القطن وأرقّ من الحرير : والطفلة الأخرى تسير من الحياة على الأشواك امتدت طبقةً من بعد طبقة . وتَنعَمُ الأولى لا لفضل أتته ، وتشقى الأخرى لا لجرم جَنَته . وهان الأمر لو أن الجنة لا يدخلها إلا قبيحات الوجوه . ولكن أين الجنة من هؤلاء ، والقبح لا يؤدى فى هذه الدنيا إلا إلى الكراهة والنقمة

والنقمة لا تؤدى إلى العمل الصالح .

فأين الحقيقة فى هذا ؟ دلونى . . دلونى !

**

وحظوظ الحيوان ، على العبودية ، كحظوظ الإنسان على الحرية . فهذا حِصان يولد للسباق فيجول فى الميادين ويصول ، يملأ أذنيه التصفيق والتهليل ، ويأكل أشهى مأكل ، ويَقبَع فى أرحب مربط . وهذا حصان يولد وفى انتظاره الأثقال ليجرها ، كل ما يرجوه لحافره الشارعُ الممَهّد ، ولمعدته ألا تُحِسّ الجوع طويلا ، ولأذنيه ألا تسمع سوط السياط كثيراً . وهذا كلب سيده فى قصر ، فهو لا يعرف إلا نعمة القصور ، وهذا كلب سيده فى كوخ ، فهو يجرى يطلب الرزق فى أركان الطريق ، ومن القمامة فى الصناديق ، كما يطلبه صاحبه تماما . وقطة عند عانس تنام على الوسادة الوثيرة ، وفى عنقها الشريط الأحمر . . عُقِدَ حوله ، طرافة وأناقة وزهوا ، وقطة أخرى لا تعرف الدُّور إلا لتسرق رزقها الحلال ، ثم تولّى ، الأدبار ، ومن ورائها قعقعة العِصىّ وقذف الأحجار .

فأين الحقيقة فى الحظوظ ، دلونى . . دلونى !

**

والخير والشر ، أى الحقيقه فيهما ؟ وأى المعاجم أفتح لتفسيرهما ،

معاجم الدنيا أم معاجم الدين .. معاجم ما كان ويكون ، أم معاجم ما يرجى أن يكون . معاجم الوقائع الحاضرة القريبة ، أم معاجم الوعود الغائبة البعيدة ؟ قالوا : « الشر ضلالة وخسران ، والخير كسب ورجحان » . وقد يكون هذا فى السماء ، أما فى الأرض فالاستقامة كما عرفناها اعوجاج وشذوذ ، والقناعة فى الزحام تَزَحَم صاحِبَها إلى الموقف الأخير ، والأمانة ميراثها الفقر ، والصدق جزاؤه التأفف فالكراهة .

ومظاهر الشر السافرة تؤذى حقا ، ولكنها تحت النقاب الجميل تسبق فى الميدان ، وتكسِب الرِّهان . وأنت إذا أردت أن تربح طلبت من الشر جليلَه ، وعِفْت حقيره . فالشر الضخم مَهِيب ، والشر الضئيل الحقير صاحبه مكشوف مغلوب . إن السرقة مفضوحة مَعِيبة ، إن اتصلتْ برغيف ، ولكنها غير ذلك إذا هى اتصلت ، أسهُمًا ، فى سوق الغلال بألف ألف رغيف ؛ والكذبة يفتضح صاحبها إذا قيلت فى حارة بين اثنين ، والكذبة يهتف لها الناس إذا قيلت فى زحام من فوق منبر تحمله أعواد من ذهب . والبنت تقتَل إذا بذلتْ عفّتها فى كوخ على حصير ، والبنت لا تَحُسّ نقصاً فى تكريم إذا هى بذا - عفتها على السرير الفضىّ من وراء أسجاف الحرير ؛

ولِخِداع الناس عن أنصبتهم من الدنيا ، ابتدعوا طيّبَ الذكْر وحُسْنَ الأُحدوثة من بعد خروج من دنيا :

ولا يبالى الميت فى قبره بذمه شُيّع أم حمده

فأين الحقيقة فى هذا ، وفى كثير غير هذا ؟

دلّونى أيها الصبية .. وأنتن أيتها الصبايا !

**

وكانت ساعة ، انحسر من بعدها الضباب عن شمس قوية باهرة ، فإذابه الضحى . وانكشفت الطّرُقُ واتضحت السبيل . وباتت حدود الصحراء الصفراء ، وحدود الحقول الخضراء ، وتدفّق فى قنواته ولَمَعَ فى ضياء الشمس الماء . ومع هذا ظلَّ أبناء الصعيد ينشدون أغنيتهم الخالدة : « عطشان يا صبايا ، دِلونى على السبيل » .

ظلوا على الماء يشكون الظمأ ، وَظَلِلْتُ . وعكفوا على الضياء يطلبون السبيل ، وعكفت . ومضيت أنشد مع عمر الخيام أنشودته الخالدة :

ولفهم الأسرار والألغاز ذاتَ يوم حَلّقتُ تحليق بازى

فى سماء المعنى الخفىّ المجازى

ولقد عدت بعدما اجتزتُ ذاك الـبابَ مثلى لما طرقت البابا

# حدثنى الجمال قال :

أنا الجمال ، يعرفنى الناس رسماً واسْماً ، ولا يعرفوننى وصفاً ، كالمعنى الذى يَحُسّه القلب ، ويعجز فلا يُفصح عنه اللسان .

أو أنا كالكهرباء ، يمسّنى الرجل منكم فتأخذه هِزّةٌ منى تُعجزه عن التفكير فى كُنْهى . ومنكم فلاسفة ذوو قلوب باردة ، حلّلونى كما حلّلوا الكهرباء ، وحلّلونى كما تُحلّل الكيمياء ، فخرجوا من الشىء المُشكل الواحد على عدة من أشياء مُشكِلة ، لم تَزِدْهم فِطنة ، ولم تُكسبهم فى اجتلائى هُـدًى ، بل زادتهم ضلالة ، كمن حلّل الماء فخرج على غازين لا يشبهان الماء فى شىء ، فهما لا يَرْويان من ظمأ ، ولا يُبلّلان من جفاف ، ولا يُلطّفان من حرٍّ كما يُلطِّف الماء .

والناس فى استكناهى بالتحليل كمن يستكنهُ الوردةَ بالتمزيق ، لا يخرج منها إلا على عدد من الوريقات الذابلة .

> إن المرأة جميلة فى سكونها ، ولكنها أجمل فى حركتها . وهى جميلة فى قعودها ، ولكنها أجمل فى قيامها ومشيتها .

وأنا الجمال ، أعيش على الجيم والميم واللام ، أعيش على الجملة لا على التفصيل ، وتُدركنى العين فى لمحة لا تجعل للعقل مجالا ليعقل ، ولا تترك المنطق فُسحةً ليتمنطق ، فأنا إما هنا أو لستُ هنا . أنا إما حاضرٌ أو غائب . وليس لى لقب أُدعَى به فأُلبِّ ، وليس لى بِطاقة أكشف بها عن نفسى كما يَكشف المجهولون المغمورون :

وجعلوا بينى وبين الحساب نسبا ، وقاسوا منازلَ نزلتُها من الناس والأشياء طولًا وعرضا ، ورقّموها وخطّطوها على الأوراق ، ثم قالوا بهذه الأرقام ، وعلى هذه النسب ، وفى مثل هذه الأشكال ينزل الجمال . ونظرتُها فوجدت أنها مما أنزل فيه أو لا أنزل ، ووجدتنى أنزل فى غيرها أكثرَ مما أنزل فيها ، وعجبتُ لهؤلاء الحاسبين ، وقد بلغ منهم حبُّ القيد والتقييد أنهم يريدون أن يقيّدوا الجمال بمنازلَ ينزل فيها . وإن يكنْ فى الدنيا شيء يكره القيدَ والتقيّد ، ويحبّ الحرية والتحرّر ، فذلك أنا ، أنا الجمال ، كثيرُ المساكن ، واسعُ الساحات ، لى بكل أرضٍ مَهبَط ومَهابط وبكل جنسٍ من أجناس البشر منزلٌ ومنازل .

وأنا أنزل فى الشجر ، وأنزل فى الطير ، وأنزل فى ما مشى على الأرض أو دبّ ، ولكننى أبهج ما أكون ، وأمتع ما أكون

فى الإنسان : أسير فى رِكاب الرجل ، أو ركاب المرأة ، فيتبع الناس حيثما سار وسارتْ . وحيثما حللتُ وإياهما ، تكون الغِبطة ويكون السرور .

ولست أنسى ، أنا الجمال ، بوليفة الجميلةَ ، تلك التى سوّيتُ قَدّها ، ووزّعتُ قَسَمات الحسن على وجهها ، بما خبل الناسَ ، فثاروا يطالبون أُولى الأمر بالمدينة ، مدينةَ طولوز ، بأن يكون لهم الحق فى هذه المتعة ، ونصيبٌ من هذه الفتنة ، فقضتْ السلطة عليها بالظهور مرتين كل أسبوع فى شُرفة دارها ؛ وكانت كلما ظهرت ، هاج القوم وماجوا ، وثاروا فكادوا أن يكونوا على الأمن خطرا .

كان هذا فى القرن الخامس عشر .

وأخرى فى القرن السابع عشر ، أليزةُ دُوقةُ هامِلْتون ، سوّيتُ منها ما سويت ، وزيّنت منها ما زيّنت . وتلقّاها الملك فى قصره فى حفلٍ ثقيل بوقاره . نخفّ بالقوم جمالها ، فتكوكبوا عليها ، وركبوا المقاعد والمناضد لاجتلاء نظرة منها . والملك نسُوه ، وحكم القصرطَوُوه . وكانت حيثما حلّت نَبَتَ الزحام . والمسارح امتلأت وفاضت كلما زارت . وتنزلُ فى الريف فيقبَعُ حولَ دارها المئات من الخلْق ليرَوْها وهى تخرج فى بكور الصباح ؟

ولكل قرنٍ نساؤه ، ولكل جيل بهاؤه .

وكوبيد رسول الحب ، جعلوه طفلا ذا جناحين ، ووضعوا على عينيه عصابة ، فهو أعمى . وأنا قائده . أقتاده فيطيع ، فلا حجّةُ المحتجّ تُفيد ، ولا عزْل العازل ينفع .

وأنا الجمال أَحِلّ فى الصغير وأحلّ فى الكبير ، ولكنى فى الصغير أحبّ ، لأن الصنعةَ فيه أدق ، والفنَّ أرقّ ، والفنّان فيه أحذق . والكبير يثير الروعة والصغير يثير العطف ، والروعة ارتياع ، وهو يدعو إلى البعد ، والعطف ميل ، وهو يدعو إلى القرب . وزهرة الياسمين البيضاء تُلقَط بين السبّابة والإبهام فى حنانٍ وريبة ، والوردة الحمراء تؤخذ أخذا بالأصابع كافّةً على اطمئنان وثقة . والريبة تُحيي الحبَّ ، والثقة تقتله . والمرأة يدعوها صاحبها بعزيزتى الصغيرة ، ولا نسمع أحداً دعاها عزيزتى الكبيرة .

ومثل الصغر الضعف ، ومثل الضعف المرض . فأنا أسكن إلى الضعف أكثر من سكنى إلى القوة . وأنا فى مظاهرِ المرض أفعلُ منى فى مظاهر الصحة . إن الغزالة على دقّة ساقها ودقّة قرنها أجمل من الوعل . وجواد السباق أجمل من حِصان الجرّ والقطة فى إقعاءتها أجمل من الأسد فى إقعاءته ، فى تلك الوداعة ،

وفى هذا الفخامة . والمرأة جمالها فى ضعفها ، وهى أفعل فى الرقة منها فى الغلظ : وهى فى الغلائل خير منها فى الثوب الصفيق ، كالبدر يزيده السحابُ الرقيق فتنة . والخَفَر صِنْوُ الضعف ، وفى الخفر التراجع ، وما أحبَّ إلى الرجل من جمالٍ متراجع . وكذلك الجمال المتمارض وليس به مرض .

* *

وأنا الجمال أحلّ بالوجه الضاحك كما أنزل بالوجه الحزين : وكم وجه أظلم على الجِدّ ، فلما ابتسم أشرق وأضاء كأحسن ما تشرق الأقمار . وكم وجه ضحك فكان كسائر الوجوه إذ تضحك ، ثم وَجَم وعَلَتْهُ مَسَّةٌ من حزن فشاق وفتن : إنه جمالٌ باكٍ لا يسطع إلا فى الثياب السود .

وأنا الجمال أعيش فى الملاسة وعلى التطْرية ، وحدودى فى المرأة جلدٌ أملس . وحدودها خط لا يعرف الزوايا ، وهو إذا دار انحنى ، تَصوّبَ أو تَصعّد . ولو درتَ معه بأصبعك وهو يتثنّى ويتحنّى ، لتغيّر اتجاهك وما أحسستَ لفرط اللين والتدرّج بانعكاس وجهتك .

وأنا الجمال تلقانى عند شفةٍ كالعناب ، وفى وَجنةٍ كالورد ، وعلى جبين كإشراقة الصباح ، ولكنك لا تجد منى فى كل هذا

مثل ما تجد إذ تَلْقانى فى العين الجميلة ، تُحدِّق فيها وهى صافية ، فتهبط فى صفائها من عُمقٍ إلى عمق ، لا ينتهى بك إلى قاع ؛ وهى كالغدير الرائق يعكس صور الدنيا . وقد تَطْرِفُ العينُ ، فكأنما لعب النسيم على سطح الغدير فاضطرب ماؤه ، ولم يذهب الريح بصفائه . والعين ، من دون سائر الأعضاء ، تنطق على الصمت ، وهى أنطق ما تكون إذا صمت اللسان ، وهى بوَّاحة فضّاحة ، لا تقول إلا الصدق إذا أعوز الصدقَ قائلوه . وقد أرادت النفس ، وهى أسيرةُ الجسم حبيستُه ، أن تخرج عن إسارها ، وتتروّح من حبستها ، فلم تجد كالعين شُرفةً تُطِلّ منها على الوجود والحياة . وفى هذه الشرفات تلتقى الأحباب أول التقاء ، فإمّا رضاً فاشتفاء ، وإما تجافٍ يكون منه الداء .

**

وأنا الجمال أعيش فى السكون كما أعيش فى الحركة ، فأنا أعيش فى الحجر فى الأصنام ، وفى الزيت على الخيش ، ولكن كما يعيش الصوت الجميل فى أقراص الشمع السَّوداء ، تُعوزه اليدُ التى تضعها على الآلة الدوّارة وتحركها ، وكما تعيش الفكرة الرائعة فى كتاب ، يُعوزها اللسانُ الذى ينطق بها . وأنا ، فى حجر أو خيش ، نغمةٌ واحدة من لحن طويل بديع ، لا تَبِين موسيقاه إلاّ إذا تحرّك النغم وتدفّق .

إن المرأة الجميلة . جميلةٌ فى سكونها ، ولكنها أجمل فى حركتها . وهى جميلة فى قعودها ، ولكنها أجمل فى قيامها ومِشيتها ، ففى القيام يستقيم العود وتتصدّر النهود ، وتتحرّك الأعضاء ، التى صاغها الله فأحسن صياغتها ، على اتفاقٍ واتساقٍ فى تتابعٍ يُعطيك لا صورةً واحدة من الجمال ، ولكن صُوَراً شتّى . وهى صورٌ حيةٌ دافئةٌ بالذى يجرى فيها من دم حار ، ودّ ناظرُهُ لو يكونُ شراباً .

**

وأنا الجمال ، أنزل حيث أنزل فلا أقيم طويلا . فى طبعى القلق ، وفيه الملل ، وفيه التحوّل . وأنا أحمد الجِدّة فى الأوعية ، والحرارة فى الدماء ، فإذا أخذت تبرد اعترتنى قُشْعريرةٌ ، فتحولتُ إلى حيث الحياة أزخر ، ومنابعها أوفر : قال شاعركم :

زوّدِينا من حسن وجهك مادا ... م فحسنُ الوجوه حالٌ تَحُولُ
وصِلِينا نصلْكِ فى هذه الدنـ ... ـيا فإن المُقام فيها قليلُ

ولقد صدق . غير أن الحسن لا يحول فيفنى وإن فنيتْ صاحبته . إن الناس تذهب وأنا غير ذاهب ، والناس تموت وأنا الحى الباقى . أنا الخالد أنتقل مع الحَيَوات فى الأرحام ، وأركب ما أشاء من الصُوَر فى مدارج القرون :

# اللهم نسألك الستر

لستُ أدرى لماذا نستملح النكتة على الرغم مما بها من خُبْث : بل لعلّنا نستملحها للذى بها من خبث

حكى خبيثٌ قال :

تحدّث فِتْيةٌ فى المبدأ القائل بأن الناس خُلِقوا ليكونوا كالبهائم عرايا ، وأن الملابس إفسادٌ للطبيعة .

وذكروا بذلك العارين والعاريات ، وما يُقيمون لأنفسهم من مستعمرات ، ممنوعةٍ على الطارقين والطارقات : قال أحدهم إنه يحب دائما أن يغشى الممنوع فى حياته مرة ، فيراه من بعيد أو قريب ، وأنه لَذاهبٌ إلى إحدى هذه المستعمرات فناظرٌ ما أمرُها. وتحدّاه إخوانه فضرب لهم موعداً . فلما بلغوا المستعمرة وجدوا حديقة واسعة ذاتَ جِدار ، وفى داخلها بيتٌ عظيم . فوقف أصحابه عند باب الحديقة ، ودخل . فلما لم يجد فيها أحداً طلب الدار : ودقّ ، ففتح

> وتساوى الناس على العرى ، فكانوا كحفنة رمل أحفنها عند ساحل البحر ، لا أفرّق فيها بين حصاة وحصاة .

الباب فاتح . فتحدث إليه . ثم عاد إلى إخوانه يخبرهم بأن الخادم يقول إن الزيارة لا تكون إلا بموعد . قالوا : وما أدراك أنه الخادم ، فلعله سيّدُ المستعمرة أو حاسبها ، أو خابزها أو طابخها ، أو لعله أحد النزلاء . فحكّ الفتى رأسه بأظافره حيرةً وعجزاً . ثم قال : على كل حال أنا متأكد من شيء واحد ، أنّ مَنْ رأيتُ ، إنْ لم يكن الخادم ، فهو يقيناً ليس الخادمة .

ولست أظن أن أحداً من أصحابه ، ولا منّا ، مال أو يميل ، إلى التشكّك فيما أكّد صاحبنا من يقينه . ذلك أنه يحكى عما رأت عيناه . ولكن عيناه لم تستطيعا ، على العرى ، أن تعرفا : أهذا الذى رأتاه سيّدٌ أم مَسُود ، ولا أيةَ منزلةٍ أو وظيفةٍ يحتلّ فى الدار .

**

وعَلِقَ فكرى بعضَ حين بهذا المعنى . علق ذهنى ، لا بالذى فَطِنَ إليه صاحبنا من الأمر ، ولكن بالذى لم يفطن إليه من ذلك . وانطوى النهار وانطوت الحادثة .

ثم جاء الليل والنوم . ومع النوم الأحلام .

فرأيتُنى أسير فى مدينة ، والمدينةُ مزدحمة ، وهى فى هرْج ومرْج ، كأن شيئاً جَلَلا قدوقع فيها . ونظرتُ إلى الناس فوجدتهم

على غير عهدى بهم : كانوا كلّهم عُراةً : ودُرْتُ أجوس خلالهم عسى أن أتعرّف منهم أحداً ، فعزّتْ علىّ المعرفة : عندئذ أدركت أنى إنما كنت على الحال الأخرى أتعرف الناس أجساماً مَكْسُوّةً : كنت أراهم أثواباً تروح وتجىء ، وتقوم وتقعد ، وتُبطئ وتهرْوِل : أما وقد صاروا الآن أجساماً ، ولا شىء غير أجسام ، فقد انبهمتْ المعالم ، فما عَرَفتُ الرجلَ منهم ، حتى على القرب ، ومِنْ أمام ، إلا إذا تصعّدَ بصرى إلى تلك الرقعة القليلة فى الدور الأعلى من بنائه ، تلك التى نسميها وجهاً . لقد أصبح الوجه البقيّةَ الباقية لهؤلاء العُراةِ من ماضيهم لإثبات ماهيّةٍ ، أو تحقيق شخصية ، كما يُثبتها ويحقّقها السّوادُ من الناس .

وتساوى الناس على العُرْى فكانوا كالأغنام ، وقد ازدحم بهم الحقل ، فلم أستطع أن أفرق بين شاة وشاة . أو كانوا كحُفْنةٍ من رمل أَحْفِنُها عند ساحل البحر ، لا أفرّق فيها بين حَصاة وحصاة .

ودخلتُ الأسواق ، ومشيت فى الطرقات ، وطرقتُ المصالح والبنوك والشركات ، فما وجدت إلا أبداناً متشابهة ، فلم أدر أيُّها العالى وأيها السافل ، وأيها الرفيع وأيها الوضيع ، وأيها صاحب الأمر وأيها الذى ينتظر الأمرَ ليطيع .

وطلبت فيهم الفقير ، وطلبت الثرىّ ، فلم أُدرك أيهم ذو فقر وأيهم ذو ثراء ، لأن مظاهر الغنى أكثر ما تكون فى الثياب ، وهى ليست هنالك . وقد تقول إن فى الشحم لدليلا ، ولكن من الأغنياء قوم لا تُثمر فيهم النعمة ، حتى الكثيرة . ومن الفقراء من تثمر فيهم النعمة ، حتى القليلة . وغير هذا ، فللثراء درجاتٌ تتجاوز حدودُها ما على الأجسام من شحوم .

وطلبت فيهم ذا الأناقة وذا الإهمال ، فلم أُدرك أيهم ذو أناقة وأيهم ذو إهمال . لأن مظاهر الأناقة والإهمال تتراءى على الثياب ، وهى ليست هناك .

ونظرت فيهم فلم أُدرك أيُّهم ذو جهل ، وأيهم ذو علم ، وأيهم ذو دنيا وأيهم ذو دين ، فلم أر العمائم البيضاء ، ولم أر المُسُوح السوداء ، ولم أدرك من فيهم ذو زراعة ، ومن فيهم ذو صناعة ، فالجلباب الأزرق اختفى ، واختفت السراويل الزرقاء .

ووقف فى مَفْرق الطرق رجل ، يُشح آناً بيمينه ، وآناً بشماله ، ولولا ذلك ما أدركتُ أنه البوليس أو أنه بعض رجاله .

وظَلِلتُ أقلّب عينى فى هؤلاء الخلق ، أتعرّف مهنتهم ، وأتبيّن هَوِيتّهم ، فارتدّتْ عينى عنهم ، آخرَ الأمر ، بغير فهم كثير . لم يُفدنى النظر إلى هؤلاء العراة شيئاً إلا القدْرَ الذى

أفاده صاحبنا زائر المستعمرة العارية ، ذاتِ الدار العظيمة والحديقة الواسعة ذات الجدار .

والنساء وجدتُهنّ أكثرَ هذه الجموع ضيقاً ، وأكثرَهن تسخّطا . قلت لهن : أفما كانت هذه الغاية التى رمتْ إليها أكثرهن . قلْنَ : قُبِّحتْ من غاية . لقد كنا نتخذ من الثياب ستاراً للمعائب نخفيها ، وإطاراً للمفاتن نبديها ، وكنا نملأ بها الفارغ ، ونخفّف عن الملآن . والزوايا نحشوها فنصطنع منها الدوائر . والذيل نجرّره أحياناً ، والمِعطف نعطفه فتنـةً ودلالا . قلت : والرجال ؟ قُلْنَ : قبّحهُمُ الله ، لقد كان الرجل منهم يدخل بيوتنا فأول ما ينادى : « يا ستّار » ! فما أولاهم اليوم بهذا النداء . وما أولى بهذه الكروش الوَرِمة والصدور المُعشِبة ، وتلك السيقان النحيلةِ العوجاء التى كأنها تمشى القُرْفُصَاء ، ما أولاها الآن أن تَصرخ تطلب السِّتْرَ من الله .

ومرّ رجل فاستمع . قلت : ما ترى فى النساء ؟ فامتُقِـع لونه وماعت نفسه . وأشار كأنما يطلب ليمونة . وقبل أن يقول ، استيقظت من نومى ، وأنا أحمد الله أن الرواية تتمّ فصولا .

# سلاسل وأغلال

> إن الرجل منا يولد حراً ، فإذا مشى فى الأرض ، أثقلته الأغلال .
>
> روسو

لا لومَ عليك اليوم يا عزيزى ولا تثريب .

إن الكتاب الذى زعمتَ أنك أرسلته إلىّ لم يكن كتاباً ، ولكن كان رسالة من تلك الرسالات الطويلة التى يجرى فيها القلم رَهْواً لغير غاية ، كما يجرى المهر ، لا يَعنيه من حركته ، أن شرّقَ أم غرّب ، وشمأل أم أجنب ، ولكن يَعنيه منه احترارُ دمه ليحسّ به دفء الشباب ، واتساعُ جلده ثم ضيقُه ليحسّ به جِدّة الإهاب ، وانفراجُ ساقيه بالخطْوِ ، مع النقر القوىّ على الأرض ، ليحسّ به فَراهة الصِّبا . وأنت ، على سنّك الحاضرة ، ممن يتهمك بشباب ، ولو أنى فعلت لقام يبرّئك منه فَوْدانِ منك اشتعل فيهما الشيب فما أبقى منهما إلا رماداً . ولكنك يا سيدى شيخُ الجسمِ فتى العقلِ ، لك من دفء المخّ ما أغنى عن دفء العضل ، ولك من

مرونة الفكر وصبره واحتماله ما أغنى عن احتمال الساعد والقدم، ولك فى متابعة الحجّة استرسالٌ يُعْيِي الحجّةَ ولا يُعْيِيك.

ولكن فتوّةُ عقلك من فتوة جيلٍ مضى. وهو فى رياضته، إذا ركب «المتوازيين» أو تعلّق «بالعقلة»، يجىء بتمرينات، غايةٍ فى الدقة، غاية فى الروْعة، لا يَعِيبها إلا أنها أطرزةٌ من زمانٍ تقضَّى. فهى جميلةٌ جمال صورة الزيت على الخيش، تسجّلُ الدهرَ، وتزَين جدران المتاحف، ولكنها فى حاضر الزمان غير ذات موضوع.

***

إنك تعيب علىّ، ومَن درج مَدْرجي، ونحا منحاى، أننا نُمعن فى ذكر الفقر ونُثير حفيظة الفقراء، فنُثير حفيظة قومٍ راضين. وليتنا فعلنا. وليتنا إلى هذا قصدنا. إن من يبلغ بهم الفقرُ هذا المبلغ، قد أَمِنتَ وأمِنّا شرَّهم يا سيدى، بما بلغ منهم الجهل فنزل بهم إلى دَرَكٍ لا يفهمون عنده ما يكتب الكاتبون. إنهم أمّيون فلا يقرأون. إن الجهل صديقُ الفقر وحبيبه، وهو لا يفارقه أبداً. والجهل يحجب النور، فالفقر دائماً فى ظلام. وأنت يا صديقى فى مأمن ما دام الفقر فى ظلام. ولقد فَطِن كثيرٌ ممن لهم عقلك، ولهم بصيرتك، إلى فوائد الظلام فرفضوا أن يُدخلوا النور إلى قُرامم، ولو مصباحَ زيتٍ نصفُ شُعلته دخان.

إنهم عملوا على تأخير المدارس أن تدخل قراهم لأنها تهوّش من سلام قوم هم فى الجهالة ، على الرضا ، ناعمون .

نعم على الرضا . . . لقد قال كبيرهم كما قلت أنت تماما : « فتثير حفيظة قوم راضين » . وأهل القرى حقاً كما تذكر راضون ، فالريف لاشك ساكن هادئ . ونحن لا نطلب للريف غير الهدوء والسكون . إن الريف جماله فى هدوئه وسكونه . نَبتُهُ يَنْبت فى سكون . وزهره يُزهر فى سكون . وثمرُهُ يُثمر فى سكون . ويتغير وجه الأرض فى الريف ، على البطء ، فلا يكاد يُحِسُّ بالذى يجرى فيه أحد ، من شدة السكون . وكذلك ناسه ؛ أعداهم سكون الأرض فسكنوا ، وخيّم عليهم هدوء البيئة فهدأوا . فالريف ، بتربته ونبته وناسه وحيوانه ، موضعٌ من الأرض باركه الله فجعله سلاما . ووجب أن يبقى له سلامه ما بقى لى ولك ، يا عالىَ الفهم ! حاجةٌ إلى الخروج عن جَلْبة المدن إلى سكون الريف . يجب أن يظل للريف سكونه ، لينعُمَ فيه أهله ، على الفقر والجهل ، ولأنعم أنا وأنت ، على الثروة والعلم . والنعيم ، كما تقول ، صورةٌ عقليةٌ لا حقيقة لها إلا فى العقل ، فهى قد تكون على الجهل والفقر ، وعلى صنوف من أحوالٍ أُخَر .

ولكن يخيّل إلىّ — ومعذرةً إن كنتُ لا أُجيد من

صنعة الكلام واستنباط الأحكام ما تجيد — يخيل إلىّ أن المسألة ليست رضى الفقير بما هو فيه، ولكن رضانا نحن، أنا وأنت، بالذى هو فيه. أنا لا أكلف الفقرَ شططًا، فأطلب إليه أن يُدرك. ولا أكلف الجهل شططاً، فأطلب إليه أن يفهم. ولا أكلفه حتى أن يرضى أو لا يرضى. ذلك أنى إذا كلفته أن يرضى قام على يكذبنى، وضميرى يؤنبنى. وأنا إذا كلفته أن لا يرضى، وهو غير قادر على أن يتحول، فإنما أزيد طينته بِلّة. أزيد حسّه بالسوء ليزيد حِسّه سوءاً، أوقِظُه لما هو فيه ليتألم على اليقظة، وأنت تُريده أن يهنأ نعسانا. وهذا نوع من أنواع الرحمة الخفيّة الذى لا يُدرك كُنهَهُ إلا الفطناء!

أقول إن المسألة، ليس أن الفلاّحَ، وأشباهَ الفلاح، يرضَوْن عن حالهم أو لا يرضَوْن، ولكن المسألة أن نرضى نحن، أنا وأنت، عن حالهم أو لا نرضى. نحن لنا القدرة على الرضَى، أو غير الرضى، ولنا الحقّ فى الرضى وغير الرضى، وعندنا الأداة التى تؤهلنا لنرضى أو لا نرضى. ولا أحسبنى ولا أحسبك ترضى أن هذا الرجل الجاهل الفقير — واسمح لى أن أقول التعسَ ولو مرّة فى غير مناقضة لفكرتك — هذا الرجلَ يدعونه بأنه ابن جِلدتك. وهو كأنفك منك وإن كان أجدع. إذن فأنت لا ترضى عن

انجداع أنفك . وإذن فأنت والله لا ترضى عن فقر رَجُلك وتعاسته . هذا حسن جميل . وإذن لا بد من تغيير . والتغيير يجب أن يبدأ من عَلٍ ، حيثُ أنت قاعدٌ ياعزيزى . إن الماء الذى يسيل من المكان العالى يهبط فى سهولة ويُسرٍ فيكون فيه السقى والرّى . وغيرُ ذلك الماء الذى يتفجّر من المكان الخفيض .

**

ولقد أعجبتنى مقالتك عن الحقيقة ، ما يؤخذ منها ببرهان ، وما لا بد من أخذه بغير برهان . إن من الحقائق ما لا بد من مَضغه قبل ابتلاعه وهضمه ، ومنها ما يقبله الإنسان بالطبع قَبول الماء ، إذْ يمرّ بموضع الطحن من الأسنان ، ويمر بموضع الهضم من المعدة ، فيؤذَن له فى المرور بغير استئذان . وأنا أوافقك على تلك الحقائق التى أتى بها إقليدس فأسماها بَدَائِهَ لمّا أعوزه البرهان . أوافقك وأوافق إقليدس على أن الشيئين إذا تساويا ، تساوت أنصافهما . وأوافقك على بدائِهَ أخرى لا أطلب منك الدليل عليها ، لأنى أعرف أنه يعوزك ، ويعوزنى ، كما أعوز إقليدسَ عليها الدليل .

ولكن هل فى الحرية وكينونتها ، شىء يدخل فى بديهات الأمور ؟

ثم فلأنتقل بك إلى الحرية وتعريفك إياها .

تقول إن الناس يولدون أحرارا ، وأن الشقىّ يَجْنِى على نفسه الشقاءَ حراً طليقا ، وأن السعيد يكسِب لنفسه السعادةَ حرًّا طليقا .

وقد تأملتُ فى مقالك طويلا ، فاتضح لى أن الحرية شائعةٌ لا شك فى الناس ، فالرجل يستطيع أن يجرىَ وأن يَكُفَّ عن جرى . وهو يستطيع أن يقوم أو أن يقعد ، وهو يستطيع أن يتثاءب أو أن يضحك : وهو يستطيع أن يضحك بسبب أو بلا سبب ، ولا يُسأل فى ذلك . وهو يستطيع أن يبكى مِلْءَ كَفّيه ولا يقول له أحد لِمَ تبكى . وهو يستطيع أن يأكل ، وأن يُفرغ ، وهو يستطيع أن يشرب ، ولا يمنعه أحد أن يبول .

مجالٌ للحرية لا شك عظيم !

ولكن أساء إلى معنى الحرية الذى تزعمه يا صديقى ، وأفسد ما تعتقد من شيوعها واكتمالها ، وما كدتُ أعتقد من شيوعها واكتمالها ، تذكّرى قَوْلةَ ڤالهارُوسُو ، فيلسوف فرنسا الشهير ، أن الرجل يُولَد حراً فإذا مشى فى الأرض أثقلته الأغلال . ودُرْت أمشى فى الأرض أبحث عن أغلالها ، فوجدت فى كل طريق قيداً . إن الرجل متاحرٌ له أن يأكل أو لا يأكل ، ولكن هذا

لا يتأتى إلّا أن يكون طعام . وهو حرّ له أن يشرب ، على أنْ يكون شراب . وهو حرّ أن يزرع ليأكل ، على أن تكون أرض . وهو حرّ أن يعمل ويكتسب قوت يومه ، على أن يكون عمل . وهو حرّ أن يتعلم ، على أن تكون فى جَيْبه نفقةُ ذلك .

فقلْ لى كم من الناس تتهيأ لهم الحرية على هذا النحو ، كاملة ؟

إنى معك . فلست ممن يَنْفَسون على أصحاب الأموال أموالَهم ، وأنا أُعجَب بالمال لما له من خواصّ عجيبة . ولا أكره منه شيئاً كـكراهتى لخاصة واحدة فيه ، أنه دائماً يحمل معه طابع السلطان ، ويحمل الغلبة ، ويحمل القوة ، وحيثما هبط تنفرج له الصفوف ، وتتخاذل دونه العزائم .

وليتك كنتَ معى فى حديقة منزلى ، حيث تجتمع القِطط فى ضحى النهار ، إذن لرأيت منظراً عجَباً ، يؤكد لك معناى .

فى ركن من أركان الحديقة ، فى ساعة من ساعات النهار الأولى ، تتجمع هذه القطط ، لأنها اعتادت ، فى هذه البقعة من الأرض ، وفى هذه الفترة من الزمان ، أن ترى الطابخ يقذف لها من نفاية اللحم ما يعافه الآدميون المتأنّقون . وتتساقط عليها تلك النفايا قِطَعاً . فهل تدرى من نصيب من تكون ؟ تكون من نصيب قطة جار لنا ، لها جسم ملىء ، ورأس ضخم ، وأكتاف

سِمان ، وسواعدُ شِداد ، ومخالب حِداد ، ونفثةٌ عند الشر مُخيفة . فهذه تدور تلُمّ من النفايا الساقطة فى فمها هذه القطعةَ ثم هذه ثم هذه . وسائر القطط واقفة ، واسعةَ العين ، تنظر ولا تجرُؤ ، للذى بها من ضعف وهزال ، كل أملها أن تضِلّ هذه القطة الأخرى عن قطعة لا تراها .

هذه القطة فازت بالأنصبة جميعاً ، أو بأكثرها ، لأنها أشبع ، ومن الشبع قوة . وسائر القطط فازت بالنصيب القليل ، أو بلا نصيب لأنها أجوع ، ومن الجوع ضعف . فى طبيعة الشِّبَع سرٌّ زيادة الشبع . وفى طبيعة الجوع سرّ زيادة الجوع .

أفلا ترى معى أن هذه الصورة ، التى تجدها فى حديقتى ، هى صورة صادقة مما يجرى فى حدائق العيش ، بين الناس .

* *

على أنى أعود فأقول لا بأس عليك يا صاحبى ولا تثريب ، وليس عليك مما أقول بأس . إنها أحاديث يملأ بها الرجل الوقتَ ، كما يملأ الفارغُ زمانَه بالنرْد ، له منه مَسْلاته ، وليس له من وراء ذلك تَبِعتُه . والأحاديث من ذلك أنفاس ، والأنفاس هواء ، والهواء أرخص الأشياء .

# الكرة التى تحمل فوق عنقك

جئتُ النادىَ مَساء ، وهو ذو شجر وذو عُشب ، والخضرة فيه أكثرُ ما يملأ العين . إلا الماء فى زرقته أو بياضه ، والغلمان تنثُرُه وتنشُرُه من خراطيمه على سُنْدُس الأرض نثراً ، ليَرْوِىَ نبتَها ويبلّل أنفاسَ الزائرين .

وغابت الشمس أو كادت . ونظرتُ فوجدت فى جانب من جوانب المكان رُقعةً قَصُّوا حشيشها قصّ الشعر فاستوى استواء لم تعهد الأرضُ مثله . وقام فى الرقعة جماعةٌ من الرجال ، فى ثياب بيض ، أكثرهم أشياخ ، يقذفون على هذا البساط كُراتٍ سوداءَ من خشب ، مِلْءَ اليدين ، يَهْدفون بها إلى غرضٍ يُصيبُونه فى أقصى الرقعة . ويقذف القاذف منهم كرته على الأرض دحرجةً فى خط مستقيم ، فتبدأ طريقها مستقيمةً — أو هكذا حَسِبْتُ — ثم لا تلبث أن تميل حتى تبلغ

> إن الزيغ ، فى عقول الناس ، وفى قلوبهم ، عدو المنطق ، وعدو الحياة ، وهو سبب لكثير مما ترى من شقاء وأرزاء .

الهدف فتُصيبه ، أو هى تكاد ولا تفعل .

وعجب صاحبى من كرة ، هى فى عينه مكوّرةٌ غاية التكوّر ، منتظمةُ الشكل غايةَ انتظام ، تنطلق على الأرض مستقيمةً فلا تلبث أن تَحِيدَ ، فيُصيبَها زَيْغ .

وسأل عن السرّ . قلتُ ثِقْلٌ من رَصاص يضعونه فى الكرة فى جانب دون جانب عند طرفٍ دون طرف ، أو هو نصف الكرة يَخْرِطونه أقلَّ تكوّراً وتدوّراً من أخيه . قال : واللُّعبة من أين جاءت . قلت إنها لعبة جاءتنا من أكثر أمم الغرب .

* *

ومضيت أقرنُ هذه الكرة التى لا تلبث أن تنطلق على الأرض حتى تزوغ ، بتلك الكرة الأخرى التى يحملها كلٌّ منا فوق عنقه ، ونسمّيها بالرأس . إنها الأخرى لا تكاد تنطلق بالفكر على استقامة حتى تزوغ . كرةُ الأرض يميل بها ما تضمّنته من رَصاص ، وكرة الرأس يميل بها ما تضمنته من هوًى .

وليس من أحد على ظهر هذه الأرض ليس برأسه ثِقْل ، بل أثقالٌ تميل به . والثقل قد يكون فى الرأس عن يمين ، فيميل بالفكر إلى يمين . والثقل قد يكون فى الرأس إلى شمال ؛ فيميل بالفكر إلى شمال . وهو لا يكاد يجرى فى أحدٍ على استقامةٍ أبداً .

ومن عجب أن تزوغ العقول بالناس ولا يحسُّون لها زيغاً ، ذلك لأنها تجرى فى نعومة ، وعلى الهوى ، ومع الريح ، دون عِثار ودون صدام . ويبلغون الغاية ويَحسَبُون أنه المنطق الصريح أبلغهم إياها . وما هى من المنطق الصريح فى شىء .

* *

إن الناس يفكّرون إذْ يفكّرون ، لا وَفْقَ ما يجب أن يكون ولكن وفق ما يُحبّون أن يكون . إنهم كثيراً ما يبلغون الغاية بغير الوسيلة . كثيراً ما يبلغون النتيجة التى يريدون ، دون تفكير ، ثم هم بعد ذلك يُعملون المنطقَ ليأتوا لها بما يبرّرها .

اختصم شابان من حِزْبين ، أحدهما وفدىّ ، والآخر حرّ دستورى . وكال كل لصاحبه الكيل مطفَّفا ، فلم تبق فى الدنيا حسنةٌ إلا وهى حسنته ، ولم تبق فى الدنيا سيئةٌ إلاّ وهى سيئة صاحبه ، وسيئة حزبه . وسألت الوفدىّ ما حزب أبيه ، فكان ابن وفدىّ . وسألت الدستورىّ ما حزب أبيه ، فكان ابن دستورىّ . فهذا وفدىّ ، وهذا دستورىّ ، قضى عليهما العرف بذلك قبل أن يولدا ، فلما وُلِدا ، وانتسبا ، وجب على كل منهما أن يبرّر فى عين نفسه ، وعين صاحبه ، صحةَ انتسابه .

وكما فى السياسة تكون الحال فى الدين .

هذا بوذى وهذا نصرانى . ويتناقشان ويتجادلان زعماً بأنهما يطلبان هداية . وما الهدايةَ طلباً ، ولكن تبريرَ ما هم عليه . كلٌّ يميل به ما تعود ناشئاً ، وما تعود عيشاً ، وما تعود تفكيراً ، لقد سبقت النتيجةُ ، فهذا بوذىٌّ من يوم وُلِد ، وهذا نصرانىٌّ من يوم ولد . ولم يبق لهذه النتيجة إلا أن يكون لها فروضٌ ومقدّمات ، ففى سبيل تقرير هذه الفروض وابتداع هذه المقدمات يكون الجدل والنقاش .

إنها قطعة الرصاص مالت بالكرة ، مالت بالرأس ، فأنَّى له أن يستقيم .

* *

وكما فى الدين والسياسة تكون الحال فى الوطنية .

فهذا إنجليزى يرى أن الله بعثه وبعث أمته هُدًى للناس ورحمة . وبعثها على الأخص لتمدينِ المستوحش، وتقديم المتأخر ، وتغليب العدل حيثُ لا عَدْل ، ونشرُ الديمقراطية حيث لا ديمقراطية . ثم للوصاية على العجزة المساكين من الأمم خشيةَ أن تأكلهم الذئاب . وتجادلُ الرجلَ العادىّ فيهم فيجادلك فى كل هذا عن إيمان . فهكذا علموه صغيراً ، وهكذا زاغوا به ومالوا . وتسأل الإنجليزىّ عن الأمريكى فيقول لك إن فيه فَجاجةَ

الجدَّة ، ويحدّثك حديثاً نفسانياً جميلا عن دلائل ذلك . وتسأل الأمريكى عن الإنجليزى فيقول لك إن فيه عَفَنَ القِدَم وانحلال الشيخوخة .

وكما فى الوطنية تكون الحال فى اللون .

فى الأمس القريب جاء البرق بنبأ غريب : قبض رجال الشرطة بالولايات المتحدة على رجل أمريكى من أهل البياض ، مرشّح لأن يكون شيخاً من شيوخ الكابيتول ، بتهمة أنه جلس فى كنيسة فى الجانب الذى خُصّص للزنوج من أهل السواد ، فخرق بذلك قانون الولاية .

وكما للسود فى الكنيسة جانب ، كذلك لهم فى المواصلات ، ولهم فى المجالس والشركات ، جوانب ، كلها حقيرٌ لا يحتملها إلا ذو سواد . وحرّموا على السود أن يكون لهم حقوقٌ سياسية ، وقد تأذن لهم القوانين ، ولكن لا يُبيح العُرف الجارى ، فتنام الحقوق .

وضموا إلى اللون الأسود كلّ لونٍ لو تركّز كان سواداً .

وأسموهم المُلوّنين .

وكما فى أمريكا تجد فى انجلترا . يدق المصرىُّ الصعيدىّ بابَ دار تكون أعلنت عن حجرة للايجار ، فلا تفتح ربة الدار فترى

هذا الوجه الأسمر الغميق حتى تردّ الباب كأنما رأت عِفريتاً ، وتفعل ذلك بغتةً ومن غير فكر .

ومثل السمر الصفر ، أو هم بهم أكثرُ ضيقاً وأشدُّ ريبةً وأكبر فزعاً .

إنه الزيغ العام المتأصّل فى العروق ، توارثوه أبا عن جدٍّ ، فى غير نظر أو حكمة .

* *

والحرب تقوم بين أمة وأمة ، فيكون لا بد من إيقاظ الإحَنِ النائمة ، وإلهاب القلوب . فتكونُ دعاية تعتمد على ما فى العقول من زيغ سبق ، فالألمان قوم قساة يأخذون من الجثث أدهانها قدحاً على النار ، والطليان قوم فنّانون لم يُخلَقوا لحرب ، فهم فى ساحة القتال يضعون البنادقَ على الأرض ليرفعوا الفُرَشَ بالألوان إلى الأقمشة والألواح . والفرنسيون لهم ثورة وفورة لا تلبث أن تَفتر ، فهم للهجوم لا للدفاع . والعرب أبناء صحراء ، الحياة عندهم رمال وجِمال . وهكذا دواليك ، يُزجُون إلى الناس كلّ خبر ، يبنونه على كل ما سبق عندهم من أثر ، ليس إلا الزيغ وإلا الهوى ، لأنه ليس من نِتاج المنطق ، ولكن من نِتاج القلوب ، كيف تودُّ الأمورَ أن تكون .

* *

وتجادل الأغنياء فى أمر الفقراء ، فيبلغ بهم الزيغ أن ينكروا أن بالناس فقرا . قال بعضهم إن الدنيا بخير ، وإن الفقر هذا الذى تصفون إشاعة لا حقيقة لها ، يروّجها ذو غرض أثيم . وإذا ذكرتَ الجهل قالوا إن الجهل أنفع للناس ، ويدورون يُثبتون لك بالحجة ، وعلى براءةٍ ظاهرة ، فضلَ الجهل على العلم ، وما فيه من راحة ، وما فيه من قناعة هى السعادة لو درَى الغافلون .

* *

وتنتقل من كبار الأمور إلى صغارها ، من الأمم والجماعات ، إلى الأشخاص والأفراد ، فتجد الزيغ صاحبَ الأمر والنهى فيهم ، والمتحكِّمَ فى العلاقات ، فهو الذى يَصِلُها وهو الذى يقطعها ، هو الذى يُحْسن وصلاً إذا وصل ، ويُسىء قطيعةً إذا قطع . يحبّ زيد عمروا ، وتسأله لماذا أحبه ، فيأخذ يفتش فى نفسه علّه يجد سبباً حاضراً لنتيجة سلفت . ويكره خالدٌ ماجداً ، وتسأله لماذا كرهه ، فيأخذ يفتش فى قلبه علّه يجد سبباً حاضراً لنتيجة سبقت . وقد يكون ماجدٌ ، على المنطق ، أجدر بحب ، وقد يكون عمرو ، على الحجة ، أولى بكراهة . وقد تأتى التجربة مصدِّقةً لما قال المنطق وهدتْ إليه الحُجّة .

* *

إن الزيغ في عقول الناس ، وفي قلوبهم ، عدوُّ المنطق ، وعدوُّ الحياة ، وهو سببٌ لكثير مما ترى فيها من شقاء ومن أرزاء ، في البيت ، وفي الشارع ، وفي الأمة الواحدة ، وبين الأمم ، ولستُ أحسَبُ أني أريد من أحد أن يُقلع عن زيغه ، فزيغ العقول صفةٌ لها أصيلة لا يمكن أن يكون عنها إقلاع . إن الزيغ من بِنْية العقل ، من تشكّله ومن تصميمه ، ككرة الحشيش إذا دحرجت عليه ، بها ما بها من ثِقل ، أو بها ما بها من تحدّب جانب دون جانب . لم يكن لها اختيارٌ إلا أن تميل .

ولكني أود لو يفعل الناس برءوسهم فعل مدحرج الكرة بكرته . إنه يقدر ما فيها من زَيْغ ، ويحسب ما فيها من عِوَج ، ثم هو يُطلقها طلقةً تتراءى عوجاء ، ولكنها تُصيب الهدف تماما كما تُصيبه الكرة الأخرى التي ليس فيها ثِقْل ، ولا زَيْغ ، إذا أُطلقتْ مستقيمةً غيرَ ذاتِ اعوجاج .

# الكذب ، فى قديم الزمان وحديثه

إن الكذب قديم ، لأن الإنسان قديم .

وأهلُ الكتاب ، والمسلمون ، يؤمنون بالجنة ، وبآدم ، وإبليس ، وبأن إبليس كَذَبَ على آدم فى الجنّة ، فأغواه فهبط منها إلى الأرض « فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم ، هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يَبلَى » .

وعَرف آدمُ الكذبَ قبلَ أن يَعرف الأرض ، وعرفه أبناؤه منذ عرفوا الأرض ومارسُوه وأَلفُوه .

فهذا الوجود كله ، فى هذه الدنيا ، مؤسّس على . . كَذِبة .

وكما بدأ الإنسان قديما على هذه الأرض بالكذب كذلك يبدأ كلُّ رجل يُولد على هذه الأرض ، وكلُّ امرأة ، بالكذب ، إنها صورة الجنس القديمة تتراءى فى صُور الفرد إذ تتجدّد . إن الطفل يبدأ حياته فيقول غير الحق ،

> والأدب يقضى عليك ، إذا نزل بك أثقل خلق الله ، أن تلقاه بأهلا وسهلا ، وما عندك له أهل ، ولا مكان سهل . ويودعك فتقول العود أحمد ، وأنت تتمنى أن تعاودك الحمى ولا يعود

لأنه لا يعرف ما الحق . إنه يعيش فى عالم كلّه خيال ، وكلّه أحلام ، لا فى عالم الحقيقة . ولكنه لا يلبث أن يدخل عالم الحقائق ، حتى يكذب ، لأنه سبق أن صدق فتأذّى . إن الطفل مخلوقٌ على الفِطرة وهو لا يُدرك بعدُ من أمر التقاليد الذى اصطلح عليها المجتمع شيئاً ، ولا يدرك مايترتب على قول الكذب فى روابط الناس من فساد ، ولكنه يُدرك أنه لا بد أن يَدفع الأذى ووجد الكذبَ أقرب دفاع .

إن الصدق من فضائل القدرة . والكذبَ ، إنْ عُدَّ حتى فى الطفل رذيلةً ، فهو رذيلةٌ من رذائل الضعف . ولن تجد أضعف من طفل .

فالإنسان ، من حيث أنه جنس قديم ، ومن حيث أنه فرد حديثٌ متجدِّد ، بدأ وجوده ويبدأ بالكذب .

* *

هكذا أخذتُ أفكر ساعةً ، بعد أن وضعتُ سماعة التلفون حيث وجب أن توضع ، وبوضعها ختمتُ حديثاً قصيراً ، كشف فيه إنسانٌ ينطق عن بعض المكنون فى طبعه ، طبعِ الإنسان ، من كذب .

كان الرقم الذى أدرتُ له الآلة التلفونية رقماً خاصاً لمدير

مصلحة . وإذا صوت يجيب : النمرة غلط : واستفتيت من أعطانى الرقم ، فأكد أنه الرقم الصحيح . وأدرت به الآلة ، فجاءنى الرد من جديد : النمرة غلط . قلت له : إن سكرتير المدير نفسه يقول إن هذه نمرته . قال فى غضب زائد : إذن فالمدير ليس فى حجرته .

صوت من هذا ؟ لم أدر .

ولم أدر كذلك هل أرضى أم أغضب .

ورُحْتُ أتسلّى باستخبار القرون ، واستخبارِ رجالها ، من كلّ ذى رأيٍ وكل ذى دين ، فى قديم الزمان وحديثه ، رحتُ أستخبرهم عن الكذب ، أشرٌّ كله أم خيرٌ كله ، أم هو بين هذا وذاك . وهل من الكذب الأسود ، وهل منه الأبيض ، أم منه كذلك الأغبر الذى هو بين السواد والبياض .

* *

سألتُ دارا ، عظيمَ الفرس ، عن الكذب . قال : ألم تقرأ بعدُ ما كتبناه فى الصخر والحجر ؟

وذهبت أقرأ فى الصخرِ والحجر ، فإذا دارا يقول : أيها الملك الذى يأتى من بعدى ، جنِّبْ نفسك الكذب . وإذا وجدتَ رجلا يكذب ، فاقسُ عليه ، فما ذهب بالممالك شىء كالكذب .

وسألت أفلاطون ، حكيم الإغريق ، عن الكذب . قال : ألم تقرأ جمهوريتى ؟

ورحت أقرأ جمهوريته ، فإذا به يصف الكذب ، بين الفرد والفرد ، بأنه عملٌ مُؤذٍ هدّام ، إلا أن يأتيه طبيبٌ ، أو أن يكون كذبا يقال فى سبيل الدولة . فكان أفلاطونُ بذلك أولَ من عَلِمتُ أنه أجاز الكذب فلم يذمّه إطلاقا . وكان أول من أجاز لرجل الدولة أن يكذب ، ومن رجل الدولة انتقل الكذب مأذونا به إلى كل رجل سياسة .

وعُدْتُ أسائل النبيّين ، من قبل دارا والإغريق ، ما الكذب. فوقفت عند الوصايا العشر طويلا ، أقرأ وأتعجب : ليس فيها عن الكذب نهى . وأى وصيةٍ أقمنُ بالناس من أن « لا تكذبوا » . فقلت لنفسى لعل صاحب الوصايا لم يشأ أن يرتبط بتحريم الكذب جملة . وعدت أقرأ ، فإذا به يحرّم شهادة الزور . وشهادة الزور بعض الكذب . وزدت فى ظنى استيثاقا . ولكن لم ألبث أن قرأت للأنبياء تحريما للكذب جملة ، فقلت : وقد تخطئ الظنون .

وسألت بولس الرسول ، قال : ألم تقرأ رسائلى إلى أهل

كولوسى ؟ وذهبت أقرؤها ، فإذا به يقول فيها : لا تكذبوا بعضكم على بعض .

ورحت أسائل أرباب الكنائس الأولى ، حتى وقفت عند أوغسطين . قلت : ما الكذب ؟ قال : رذيلة لا تغتفر . قلت : ولو كان من ورائها جلب خير أو دفع شر ؟ قال : إن الكذب رذيلة فى كل مكان وكل زمان .

ورحت أدور على أتباعه ، فوجدتهم جميعاً على رأى واحد ، بل وجدت الكثلكة كلها على هذا . حتى وقفت على رجال ممن تأخروا ، وجدت عندهم لِيانا .

قلت لأحدهم : ماذا تقول لقاتلٍ جاء يسألك عن ضحيته ، وقد خبأتَها أنتَ فى بيتك ؟ قال ، بعد تردد : أقول ليس فى الدار أحد . قلت : إذن فتكذب . قال : لا ، إنها كلمة صادقة قلت منها بعضاً ، وحفِظتُ فى نفسى بعضاً . قلت : زدنى علماً . قال : أردت أن أقول له ليس فى الدار أحد يجوز لى أن أكشف لك عنه ، ولكنى أعطيت له من الجملة صدرها ، واحتفظت بعجُزها قلت : وما تسمِّى ذلك ؟ قال : نسميه احتفاظاً عقلياً .

ووصلت الحديث أسائله : وإذا اعترف لك وأنت القس الكاثوليكى، من الشعب معترف ، وأفضى لك بمكنون سره ،

وجاءك من يسألك ، هل أفضى لك فلانٌ بكذا ، فما أنت مجيب؟ قال : أجيب بأنه لم يُفضِ لى بشىء . قلت : واحتفظت — لا شك — فى عقلك ، ببقية من جملة ، أنك لم تفض بشىء « مما يجوز لقس أن يبوح به » ؟ قال : نعم ، هو ذاك .

وخرج على الكنيسة من بعد ذلك خوارج . وجئت أسائلهم فى الكذب . وكان مسئول بروتستنتيا . قلت : ماذا ترى فى « الاحتفاظ العقلىّ » الذى يعصم من الكذب ؟ قال : إنه الكذب المباح . قلت : وهل فى الكذب ما يباح ؟ قال : إن الاحتفاظ العقلى « لفّ ودوران » . إنهم يكذبون ولا يريدون أن يسمُّوا ذلك كذبا ، وعدت أسائله فى أمر القاتل الذى جاء يطلب عنده ضحيته وقد خبأها فى داره . قال : أقول ليس فى الدار أحد ، وأكذب متعمداً . قلت : وكيف تبرر ذلك ؟ قال فى لباقة بارعة : إن علىّ فى هذا الأمر وَلاءيْن ، ولاء للحقيقة يقضى علىّ بالصدق ، وولاء للعدالة يقضى علىّ بالكذب . وإذا تعارض الولاءان ، ولاء للحقيقة وولاء للعدالة ، جنحْتُ إلى العدل فمنعت الجريمة ، وعلى الصدق العفاء .

وعدت إلى الإسلام ، إلى محمد ، فردّنى إلى القرآن ، فقرأت فيه « انظرْ كيف يفترُونَ على الله الكذبَ وكفى به إثماً مبيناً »

وقرأت حديث محمد فإذا به يقول : « الحرب خدعة » . والخدعة هنا فى الدفاع عن الدولة . وبذلك قال أفلاطون من قبل ، وقرأت عن محمد أنه خرج للهجرة ، فلَقِيَهُ فى الطريق أعداء له طالبون . قالوا : من الرجل ؟ يعنون من أى قبيل . قال محمد : من ماء . وماء اسم قبيلة ، ولكن محمد عَنَى أنه خُلق من ماء ، فلبّس بذلك عليهم . فإن صحّ هذا ، فقد أجاز محمد التلبيس خروجاً به عن الكذب ، فى الموقف الحرج . والتلبيس فى الموقف الحرج ، بحثه الفلاسفة وأجازوه ، من قبل محمد ومن بعده .

**

ثم من محمد هبطتُ فى الزمان هبوطاً كبيراً ، إلى الأحدثين من الحكماء والمفكرين . وساءلت هؤلاء ، فعلمت أنهم نالوا الكذب بمِشْرط الجرّاح ، يقطّعونه ويشرّحونه ، كأنه جثة على منضدة ، فى مدرسة من مدارس الطب الحديث . وخرجوا على أن اللسان قد يكذب بالقول الكثير ، وقد يكذب بالقول القليل ، وقد يكذب بالحذف ؛ وقد يكذب حتى بالصمت . ولعل من هذا جاءت تلك الصيغة المعروفة التى يُفرَض على الشهود قولها فى المحاكم قبل الشهادة : « أقول الحق ، وكل الحق ، ولا شيء غير الحق » . وخرجوا كذلك على أن اللسان قد يكذب ، وقد

تكذب العين ، وقد يكذب الوجه ، وقد يكذب القلب ، وشر أكاذيب القلب أكذوبةٌ يكذبها على صاحبه .

وكما يكون الكذب بالقول ، يكون بالعمل ، وهو إذن يشمل الخداع والخيانة والغدر والسرقة كذلك .

وجعلوا الكذب مراتب ، تخفيفاً عن ابن آدم فى مِحْنته وجعلوا منه الأبيض والأسود .

وشر الكذب ما عمد به صاحبه إلى الإضرار بالغير ، إضراراً مؤكدا ، وأقلُّ شراً من ذلك كَذِبٌ يأتيه المرء ليتوارى فيه ، ويدفع به عن نفسه ، وقد بالغ بعضهم فقال : إن الصدق لا يجب إلّا بين الأنداد ، أما بين القوى والضعيف ، فى غيبة القانون ، حتى وفى حضرته على ضعف ، فالكذب يدفع به الضعيف عن نفسه إذا لم يستطع أن يدفع بالقانون . من أجل هذا يكذب الفلاح ، ويخدع . وقد كذب وخدع منذ كانت الأرض ، وكان الإقطاع :

ولقد خفَّ الكذب خفّةً ، فى ملابسات عدّة ، جعلتْ منه شيئاً عادياً مقبولا ، لأنه جرى عليه اتفاق عام ، وأمنت عليه أساليب جاريةٌ بين الناس أسمَوْها آدابا .

فالأدب الحاضر يقضى عليك ، إذا نزل بك أثقل خلق الله ، أن تلقاه بأهلا وسهلا . وما عندك له أهلٌ ولا مكان سهل .

ويودّعك فتقول آنستنا ، والموْد أحمد، وأنت تتمنى أن تعاودك الحمى ولا يعُود . والذى خفّف من هذا الكذب وأمثاله ، أنه كذبٌ مفضوح ، عند قائله وعند سامعه . كالقصة يكتبها القصاص ، ليس بين وقائعها والحق نسبٌ ، فهى كذبة عريضة لاشك فيها . ولكن يذهب بما بها من كذب أن الناس تقرؤها وتعلم أنها الكذب ، وأنها الخيال .

وكأساليب الأديب أساليب النداء والخطاب . تكتب لرجل لا تعرفه ، أو تعرفه ، ويهون عليك كل الهوْن ، فتقول : « عزيزى فلان » : وتختم فتقول : « وتفضل فتقبل فائق احترامى » ، وقد لا يكون بك له شىء من احترام . وتدعو فلانا بصاحب العزة ، وهو بصاحب الذلة أجدر . وتدعو فلانا بصاحب السعادة ، وأنت تعلم أنه فى بيته صاحب شقاء . وتدعو آخر بصاحب الفضيلة وقد يكون رب الرذيلة أقمن .

ألفاظ جوفاء ، يعلم الكل أنها جوفاء . فهى من أجل هذا أكاذيب بيضاء .

**

وبينما يفكّر المفكرون ، ويقرّر الحكماء ، ما الصدق وما الكذب . وما الخفيف منه والثقيل ، يجرى بن آدم ، منذ كان

آدم ، على طبعه في تسهيل الحياة ، والإفلات من مضايقها ومعاركها ، بالكذب ، ما أفاده الكذب حاجةً عاجلة . وهو يخادع ، وهو ينافق ، وهو يسرق ، ما جرّ له ذلك في يومه أو غده القريب مَغنما ، أو دفع عنه مَغرما . وأقول غده القريب ، لأن أكثر الناس قصار النظر ، وهو قِصَرٌ لا تصحّحه العدسات وهى من زجاج .

وقد تفنن الباحثون الأحدثون ، في الكشف عن خبايا الأنفس ، وفى فضح الضمائر ، بالآلات أحيانا ، وبالسؤال والجواب أحيانا ، وبالحيل أحيانا ، وخرجوا من ذلك على أن أكثر الناس كاذبون منافقون ، وأنهم أكثر كذبا وأكثر نفاقا ، ما أَمِنُوا الكذبَ أن ينكشف ، والنفاقَ أن ينفضح .

عمد رجلان باحثان إلى أمانة طوائفَ من الناس يمتحنونها . وامتحنا فيما امتحنا رجالا في نحو من ثلاثمائة وخمسين جراجا ، وقفوا عندها بسيارة أصاباها بخلل مقصود . وكان الخلل هيّنا تصلحه نظرة سلك تزحزح عن موضعه . فكان رجل الجراج يصلح هذا الخلل ، ويدّعى إصلاح غيره ، بالكذب ، ويطالب من أجل هذا الذى لم يفعله أجراً كبيرا . وغلب الخداع فأصابهما في ثلاثة وستين جراجا من كل مائة من الجراجات التى وقفا عندها .

ووصلا هذا البحث ببحوث غيره ، وفعل غيرهما من البحاث مثل ما فعلا . عند مُصلح الراديو . وعند مصلح الساعات . بين خدم الفنادق ، ومستخدمى المخازن . وكتبة البنوك . وغير هؤلاء وهؤلاء . وخرجوا جميعاً على نتائج متقاربة ، أن نحواً من ثلثى هؤلاء الناس لا أمانة عندهم .

**

لا تلعنْ يا صاحبي ، ولا تَنْعَ الناسَ ، ولا تسُبَّ الدهر ، وتنسى نفسك . ولن ألعن يا صاحبي ، ولن أنعى الناس ، ولن أسبّ الدهر ، وأنسى نفسى . ذلك أن صناعة العيش مُرهقة ، والطبيعة ، والطباع ، وأوضاع الحياة كثيراً ما تكون مُجحفة . وهذه الأرض البسيطة ، ما بُسِطَتْ ، لتكون أرضاً حراما ، وإلّا فما فضل المساجد والكنائس والبِيَع .

« وإذْ قال ربك للملائكة إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفةً ، قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقُدّس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون » .

# خذوا الدنيا، غِلاباً واغتصابا

سألنى بعضهم يوماً :
ما الحياة ؟ فقلت على الفور :
إنها عمل ، يحْدُوه أمل .

وحسِبتُ ساعةً أن السجعة غلبتْنى فى صياغة هذا الجواب . وعدت أغيّر فيه ، لأفسد ما فيه من سجعة ، ولأذهب عنه بتهمة الصنعة ، فما وجدت خيراً مما فيه .

والحقُّ أن الحياة عملٌ لأمل ، وسيرٌ لغاية .

والسير على سطح الحياة كالسير على سطح الأرض ؛ فيه الهضاب وفيه الوهاد . وما يكاد المرء يَخلُص فيه من عقبةٍ حتى تطالِعَه عقبة .

والناس فى تلقّى العقباتِ تختلف طبيعةً ومزاجاً ، وتختلف تخلّقا .

فمن الناس الرجل الذى إذا صادف عقبة تلقّاها مواجهة : حَسَبَ ما عنده من قوة . وما لديه من جِهاز ، واختط خطّته ، وهمّ همّته ، فإذا به يسقط واقفاً على رجليه فى الجانب الآخر من العقبة :

> إن الله جعل للناس أعيناً فى وجوههم ليسيروا بها قدماً ، ولو أراد الله للرجل منا أن يتقهقر لركب له فى قفاه أعيناً

وإذا به ينفض عن نفسه الغبار ويستأنف السير على انبساط ، حتى تتراءى له عقبة أخرى فى سبيل الحياة ، فيعالجها كما عالج أختها ، مواجهةً ومهاجمة .

ومن الناس الرجل الذى إذا صادف عقبة تلقّاها بالتحول عن سبيلها إلى سبيلٍ غيرها ، وقد يتحول تحولا كاملا فيطلب عملا غير عمله ، وقد يتحول تحولا ناقصاً ، ثم هو يستتم الفراغ الحاصل فى وقته ، وفى نفسه ، وفى أمله ، بهَوَيّة كائنة ما كانت .

ومن الناس الرجل الذى إذا صادف عقبة تلقّاها بالوقوف أمامها ، أو بالقعود عندها ، فلا هى تتحرك ، ولا هو يتحرك . وتستشعر نفسُه الخيبةَ . والنفس تأبى استشعار الخيبة ، وفى سبيل نفض هذا الشعور بالخيبة تسلك النفس مسالك شتى .

* *

ومن المسالك التى تسلكها النفس لتنفض عنها الشعور بالخيبة ، لومُ الناس والأشياء فيما أصابها . فقد يتعثّر الرَّجُل فى حَجَر ، فإذا به يَركُل الحجرَ بِرِجْله ركلاً ، تأديباً له واستشفاء ، وهو لا يزيد رِجْله بذلك إلا إدماء . وهو مع الناس يتّهم الناس . يتهم رئيسه بالغفلة أو بالغباء لأنه لم يقدّر ما به من مواهب . وقد يتّهمه بالتعصب ، وقد يتّهمه بالمحاباة . وإخوانه ، ممن سبقوه ،

وتأخر عنهم ، يروح يجد فى كل منهم سبباً للحطّ بهم والنيل منهم ، إن لم يكن فى الصفات التى تتصل بعملهم ، ففى الصفات التى تتصل ببيتهم وأهلهم ، وبنواحى الحياة الأخرى .

فغيبة الناس ، وأكل لحومهم ، وتقطيعُ فِرائهم ، كثيراً ما تكون لغير ماسبب إلا خيبة أصابها هؤلاء العيّابون المغتابون ، الآكلون للحوم ، القطّاعون للفِراء .

وفى ذلك قال البحترى قولا جميلا :

وكأنما شرف الرفيع إذا انتمى    جرمٌ جناه على الوضيع الأصغر

* *

ومن المسالك التى تسلكها النفس لتنفض عنها الشعور بالخيبة ، الترفعُ والتعالى : إن الخيبة قد نزلت بهم فى أعين الناس فلا بد من أن يرتفعوا ، لا إلى مستوى كانوا فيه ، ولكن إلى مستوى أعلا وأسمى : إن هذا يَبْهَرَ الأعينَ ، والعين إذا بُهِرَت فهى لا ترى ، وهى إذا لم تر عجزت عن التصديق والتكذيب .

والجماهير على كل حال قريبةُ التصديق ، وفيها دائماً الفئاتُ الضعيفةُ المتخاذلة التى هى دائماً على استعداد للتصاغر عند رؤية من تَكابَرَ . وصاحبنا يرى فى تصاغر الضعفاء لتكابره رفعةً له وعزة ، وشفاء لنفسه من خيبة .

ومن الناس من يجد الخيبة فى علمه ، فيروح يتكاثر عند الناس بماله . ومنهم من يجد الخيبة فى علم ومال ، فيروح يجد العِوَض فى أبٍ ثرىّ أو جَدٍّ نابه . وقد يجد الفرد فى أمته الحاضرةِ ما يُشعره الحطَّةَ ، فيروح يحتجّ بما كان لأمته فى سالف الزمان ، وغابر الوقت والأوان .

والناس دائماً ، إذا أعوزهم الرضا عن حاضرهم ، عن خيبة ، ذموا زمانهم . والرجل لا يذم زمانه إذا اغتنى وتيسّرَت له الأمور . ولكنه يذم إذا ضاقتْ به السبل وتعسّرت به الأمور . فهو يذم هربا مما هو فيه واعتذارا . وفى مثل ذلك قال المتنبى :

أتى الزمان بَنُوه فى شبيبته فسرّهم وأتيْناه على الهَرَم

ونحن نعلم كم خاب المتنبى ، وكم أخطأ فى إصابة مرماه . وهو الذى قال فى صباه :

أىُّ محلٍ أرتقى أىُّ عظيمٍ أتقى
وكل ما قد خلق اللهُ وما لمْ يَخْلُقِ
محتقرٌ فى همّتى كشعرةٍ فى مَفْرِقِ

ومن المسالك التى تسلكها النفس لتنفض عنها الشعور بالخيبة ، أن تبحث عن فلسفة تتوارى فيها ، وترقدُ تحت ظلالها الوريفة الباردة . وتحت هذه الظلال ستتفسّر لها الخيبة بأنها عمل غير

شائن ، بل شيء لا يُؤْبَهُ له أبداً، لأنه لا يوجد في الحياة ما يُؤْبَهُ له . وتحت هذه الظلال سينسج الفكر لصاحبه نسيجاً غير ما تَنسج سائر العقول ، ويبنى له الخيال دنيا غيرَ دنيا الناس . دنيا أشفَق وأرحم ، بها منطقٌ أرقّ وأحنّ ، وهو منطق يهدف إلى النفى أكثرَ من هَدْفه إلى الإثبات ، وإلى التأجيل أكثرَ من التعجيل ، وإلى الجمود أكثرَ من الحركة ، فهو لذلك أوفقُ لغير ذى توفيق ، وأهدأُ لنفسه ، وأكبر امتزاجا بمزاجه .

وقد لا تصعد ثقافة الرجل إلى الفلسفة فيتخذ لنفسه مسلكا من نوعها، ولكنه دونها قدرا ، فيتصل بالمنجّمين ومن يحضّرون الأرواح ، فيعيش فى الغيب المحجّب على لذةٍ واطمئنان لم يجدهما فى الحاضر المكشوف .

* *

والدين واردوه من الناس صنفان ، صنف سمع القول المأثورَ : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك يموت غدا » ، فاستطاع أن ينتفع من هذا القول المأثور بشطريه ، دنياه وآخرتِه . وصنف حاب فيما تطلّبتْ دنياه من جهد ، ومن حزم ، ومن مصابرة ، فاحتمى من خيبته فى الشطر الثانى من هذا القولِ ، فى آخرته ، فظل يعمل لها وحدها كأنما هو يموت غدا ، ونسى أنه مات بالأمس .

ومِثْلُ هذا الرجل عزّ عليه أن تنال قدماه الأرضَ فتتمكّنَ منها وهو فى تيار الحياة الجارف ، فقذف به تيارها إلى هامش الحياة . فهو فى الحياة وليس فيها . وقد يكون فى أول الحياة عمراً ، ولكنه يستعجل خاتمتها مزاحا ، وهو يزهد فى الدنيا ولكن بعد أن زَهِدت هى فيه . وقد زَهِد الخلفاء الراشدون فى الدنيا ، ولكن لا على البطالة ولكن على العمل . والعملِ لا لأنفسهم ، ولكن للناس . كان زُهداً فى نجاح ، لتأسيس دين وتأسيس أمة .

والأديرة كثيراً ما يدخلها من عضّتهم الحياة بنابها . عملوا للدنيا ففشلوا ، ونال الفشل من عزّتهم ، ونال من كرامتهم . وفى الدير تصحّ العزةُ المثْلومة ، وتُسترجَع الكرامة المهضومة . إن الفاشل إذا بقى يسير فى طرقات الناس ، مَشَى بعد خيبة على فقر وعلى ذلة ، فيتألم . ولكنه فى الدير يسير على فقر وعلى ذلة ، فيرتاح . إذن فالدير له أروح ، وبيت الله أندَى وأندَح .

ومَثَلُ الذى يتوارى من فشل فى الدين ، كمَثَل الذى يتوارى من فشل فى شعرٍ وفى أدب . إن كثيراً من الِحبر الذى سال أسودَ من شقوق الأقلام على الورق الأبيض ، إنما كان دمَ الكُتّاب الأحمرسال من شقوق قلوبهم بعد أن عصرتْها الخيبةُ ، وضمضمها الفشل ، فى حبٍّ أو أمل .

كم كاتب ذاق الفقر ، وذاق بالفقر المرّ ، وضاق حتى كاد يطقّ ، ففشّ ما به فى كتاب ، فوجد من ذلك الراحة ؛ وهى كراحة الدُّمَّل إذا خرج خَبَثه .

وكم من شاعر فَشِل فى استجداء فاحتمى فى الهجو ، وآخر فَشِلَ فى الهوى فاحتمى فى النسيب .

وقائلةٍ وا رحمتا لشـــبابه فقلتُ أجلْ وا رحمتا لشبابيا
أصاحبةَ المسكين، ماذا أصابه؟ وما باله يمشى الوجَى متناهيا ؟
وما باله يبكى ؟ فقالت لما به ألاَ إنما أبكى لما لا لما بيا
بنى عم ليلى، مَنْ لكم ؟ غير أننى مُجيدٌ لليلى ما حَييت القوافيا

وحقاً لقد أجاد ما عاش القوافى ، ولكنه أجادها لنفسه لا لليلى . إن الشاعر بكّاء شكّاء ، والبكاء والشكوى شفاء الفشل والخيبة . شفاء الفشلِ والخيبةِ فى الحب لا فى الشعر . فالشعر جميل ، وهو باق على الزمن ، يتعزى به الفاشلون ممن لهم قلب الشاعر ولهم فشله ، وليس لهم لسانه .

**

ومن المسالك التى تسلكها النفس عند الفشل ، أنها إذا عارضتْها ريحٌ لم تُقابِلْ معارضةً بمعارضة ، ولكن تذهب مع الريح حيثما ذهبت . وصاحبُ هذه النفس يقول لا عند ما يقول

الناس لا ، ويقول نعم عندما يقول الناس نعم . فإن كان فى عمل تنبأ برغبة صاحبِ العمل كأحسنِ ما يتنبأ بالجوّ رُصّاده ، فسبق إليها . وإن كان فى سياسة صفّق فى سواد الناس عندما يصفّقون ، وهتف ، بالوُدِّ أو بالضد ، عندما يهتفون . علّمته الحياة الفاشلة أن الميوعة كسب ، والصلابةَ خسران . وأن الماءَ السائلَ يذهب أبعدَ مما يذهب إليه الصلب الجامد .

* *

فتلك يا صحابى بعض ما يهرب إليه الهاربون الفاشلون المخيَّبون فى الحياة . يحتمون من الفشل بالتّهم يُلقونها ، أو بالغيبة يأتونها ، أو بالكره والحسد ، أو باصطناع الرفعة والعلاء ، أو بالتكاثر بفضل ليس لهم ، أو بالتفاخر بماض لا يأتلف مع حاضرهم . وهم قد يحتمون بفلسفة أو دين ، أو يتوارَوْن فى شعر أو أدب ، أو يَجْرُون مع الحياة حيثما تجرى ، كالعود فوق الماء الجارى ، وكالريشة فى مهب الريح .

وليس شيء من هذا من الحياة الناجحة فى شيء .

إن الحياة جهاد ، وصعابها لا يلقاها الإنسان بظهره ، ولكن بوجهه ، وقد يعلو وجهَه فى الصراع الترابُ ، وقد يَجْرحه فى الصراع الظُّفْر والنابُ ، ولكن تعلوه آخرَ الأمر ابتسامة

النصر ، فتزين الوجهَ الجريحَ الأغبر .

إن الذين يهربون من الحياة ، يعارضون مشيئة الله فى الحياة . إن الله جعل للناس أعيناً فى وجوههم ليسيروا بها قُدُماً ، ولو أراد الله للرجل منا أن يتقهقر لركّب له فى قفاه أعينا .

نحن هنا فى الدنيا ، لنأخذَ من الدنيا ، لا لتأخذ الدنيا منا . والدنيا لا تؤخذ إلا غلاباً واغتصاباً .

# الحمار الحزين

حدث الذى أحكى فى
عزبة صديقنا زعتر ، بالقرب
من قليوب . جلسنا نستدفئ
فى الشمس من بعد غداء ،
وقد ثَقُل الطعام بالأمعدة ،
وثقـل بالألسنة
فصمتَتْ طويلا ،
حتى مرّ عامل
ومعه حمار ، وعلى
الحمار تراب يحمله .
وقد حرَن الحمار فما أراد أن
يمضى . فأهوَى عليه العامل
بالعصا ، وهو لا يريد أن
يمضى : وزاده ضربا فزاده
إباء . ووقع كل هذا الضرب

> إن دنيا ، لا ينهق فيها
> حمار ، دنيا كئيبة حزينة ،
> لا يطيب فيها عيش ،
> أو يتم هناء .

ونحن ساكتون جامدون ،
قد ثقلت بنا الجفون ؟
حتى نطق صاحب الحمار ،
قال : حا ، يابن الكلب !
عندئذ هبّ من غفوته من
بيننا أُسَيْتِيذٌ فى
فى علم الأشياء
يقـول : ابن
الكلب ؟ ابن
الكلب إزّاى !
لا يمكن أن يكون الحمار ابن
كلب : هذا مخالف للنواميس .
قال مدرس القرية : إن
لم يَجُزْ هذا يا سيّدى عِلما ،
فقد جاز لغة . ألم تسمع قط

بالتشبيه والاستعارة ، وبالمجاز والكناية ، وبغير ذلك من صنوف البلاغة . ألا تقول هندُ قمر وزيد هِزَبْر ؟

قال أسيتذيذ علم الأشياء : لا ، أبداً ، أنا لا أقول هذا : على أن اعتراضى قائم على الحقيقة والمجاز على السواء . ألست ترى ياعزيزى أنك بمجازك هذا قد جاوزتَ حدود الأقدار . إنك إذا قلت إن الحمار ابنُ كلب ، فكأنما قلتَ الحمارُ كلب : فابن الكلب كلب كأبيه : هذا منطق سليم لا شك فيه . وإذن تكون قد وضعتَ هذين المخلوقين فى مرتبة واحدة . وأين الحمار من الكلب فى مراتب الحيوان : وأين الغباء من الذكاء ؟ وأين البلادة من النشاط ؟ وأين ... ؟

ونظرتُ إلى الحمار ، وقد كف عنه حامل العصا ، فوجدته قد مال بعنقه إلينا ، وأخذ يَحْدِجنى بعينين واسعتين يكاد يقطر منهما الحزن والأسى :

فهزت نظرته الكئيبة أرْيَحِيّتى ، كما تَهُزّ أرْيحيّةَ كلِّ كريم ، فوجدتنى أنطلق من حيث لا أحسب ، أدافع عن هذا المسكين دفاعاً حاراً أثار إعجاب الحاضرين . فما كان منهم إلا أن طلبوا منى حديثاً مكتوبا ، يكون منه للأجيال عبرة ، ويبقى على السنين : وانصرفت فكتبت هذا الحديث . وهو حديث طويل ،

لهذا أجتزئ منه هنا بالقليل . وأسميْتُه نفثةَ المَصْدور، فى الدفاع عن الحمير .

قلت فيما قلت :

إنى أستفتح حديثى باسم الله العلى العظيم ، ليكون له من ذكر الله شىء من المهابة والجلالة ، فحديث الحمير قلّ أن يكون مَهِيباً وقوراً . إن الأمر جِدّ لا هزل فيه ، فهو يختص بنصرة الضعفاء ، بنصرة فئة من الخلق جار عليها الزمان ، وجار طويلا . وقد آن أن يدافع عنها عند سائر الخلْق مدافع .

وإنى فى دفاعى لن أتوخّى المجاملة ، ولو أن المجاملة قد اتصلتْ أسبابُها فى حياتى بينى وبين كثير من الحمير . وإنى فى دفاعى لن أمالئ أحداً منها لعصب أو نسب ، فما اتّصلَتْ مع الأسف الشديد بينى وبينها أعصاب ، ولا انعقدتْ أنساب . وبُعداً بالريبة فى أمر خطير كهذا ، سأبدأ دفاعى بشهادة قوم أعاجم هم أبعد ما يكونون عن قبيل الحمير عصباً أو نسباً ، لأنهم من بلاد ليس الحمير من سكانها : فالحمار عندهم تُحفة ، لم تَحُطّ من قدره لديهم أُلفة .

قال السير أرثر طمس : إن الحمار بين الحيوانات شىء نادر ثمين ، وهو ذكى من تحت غباءة الظاهر ، وهو يُحب ويردّ على الحب امتنانا . وهو فوق ذلك فيلسوف ، وليس ما يقال فيه غير

ذلك إلا نتيجة مؤامرة عظمى اشترك فى حَبْكها كلُّ البشر .

والسير أرثر رجل عالم جليل وهو يدرى ما يقول .

وقال بوب ، الشاعر الإنجليزى المعروف : ونفخَ الحمارُ فى بوقه عاليا والبوق لا يخرج منه إلا النغم الجميل .

وقال سويفت ، الكاتب الشهير ، صاحب الكتاب الأشهر ، أسفار جِلِفَر ، قال يصف الحمار عندما ينهق : إنه بُلْبل يغنِّى فى ليل .

وقال كُوبَر ، وهو شاعر آخر غير منقوص . قال عن الحمار : إنه يصدح بالنغم أعلى ما يكون ، وأصفى ما يكون .

وآخرُ استمع إلى الحمار طويلا وضحك طويلا . قال : إنى أتحدَّى إنسانا ، كائنا من كان ، أن يستمع إلى نهيق الحمار ، لا سيما إلى أنغامه الأخيرة ، تلك الأنغام الختاميّة الحزينة ، ثم لا يضحك . إن الحمار يبدأ بأنغام قوية حماسيّة ، كأنما هى أنغام الموسيقى العسكرية يسيرُ عليها الجند للقتال . ثم لا تلبث هذه الأنغام أن تتراجع ، فتنقلب إلى أصوات مُفجعةٍ خاوية باكية شاكية ، فكأنما ذكر الحمار حُظوظه ، وذكر أحزانه ، فبكى .

وأى حظوظ وأى أحزان .

**

إن الحمار ابن الصحراء ، أرضِ الطلاقة ومَسْرح الحرية ، والبُحبوحةِ التي لا يحُدّها إلا الأُفُق . إنه يبكي فيها دياره ويبكي أيامه تلك التي انطوتْ من ساعة استأنس وعاشر الإنسان :

ولقد رأيتُ له إخوةً يسكنون إلى اليوم الصحارى . فأيُّ نشاطٍ وأي جمال، وأية يقظة وأية رشاقة. وطاردوها في الصحارى الإفريقية والصحارى الأسيوية على ظهور الجياد المختارة فما لحقوا بها . ونقف ننظر إليهم استخفافا . فإذا اقتربوا عملت حوافرها في الرمل ، وأعملتها في الصخر ، فما شقّوا لها غبارا :

فالحمير إنما تبكي على هذه الحرية الغابرة ، والمقْدرة الذاهبة ، وتحزن ، وحقَّ لها البكاء وحقّتْ الأحزان . وتلك الكآبة البادية إنما هي احتجاجٌ صامت يقرؤه كل صاحبِ حقٍّ مغلوب :

ومن أساليب احتجاجها ذلك الصوت الذى أنكرناه ، فسميناه نهيقا ، إنه صوت قد لا يجوز والناس على ازدحامهم في المدينة في ميدان كميدان الأوبرا ، ولكنه جائز كل الجواز على الخلاء في وادى كوادى عَرَبة . يُخبرك بذلك من اعتادوا ارتياد الصحراء ، فتصاوتوا ليدعو بعضهم بعضا ، فلما تقاصرتْ أصواتهم ودُّوا لو يكون دعاؤهم نهيقا .

إن نهيق الحمير دعاء ، لو وجد له أُذُنًا تعِي .

وتلك الأذن الطويلة ، التي أصبحتْ علما على هذه الطائفة المسكينة . إنها أذن الصحراء ، تجمع النغم البعيد الذى تشتّتَ فلم يجد له فى الفضاء الواسع جامعا . إنك تضع كفك إلى أذنك إذا خَفَتَ الصوت لتزداد سمعا ، وتَنْسى أنك بهذا إنما تُريد أن تطيلها ، تريد أن تستعير على غير وعْيٍ منك أُذُنَ حمار .

ونعجب للحمار ، وننكر عليه أن يتمرّغ فى تراب الأرض . وما تمرغ إذا تمرغ فى تراب الأرض ، وإنما فى رمل الصحراء . إنها الذكرى القديمة العزيزة فى أعماق الوعى البعيد تطفو حيناً بعد حين .

* *

وننكر على الحمار صلابة رأسه ، وننكر عناده وحِرَانه ، ونريد منه أن يكون دائماً طيّعا مِذْعانا ، وهل يطيع دائما إلا الذليل ، إنه فضلٌ من عزّة ، وفضلٌ من جماح كان له يوم لم يكن يعرف البَرْذَعَةَ واللجام .

ونصبوه رمزاً للغباوة ، وهل ينمو الذكاء فى أرض تَسُودها الجوع ؟ إن الحمار « حِصان الفقير » . هكذا سمعتُ رجالا يصفونه ولقد صدقوا . إن الحمار وصاحبَه كالأعمى يحمل مُقعَدا . إنه المسكين يجرّ مسكينا ، والبائس يقود بائسا . والبؤس يُطفِئُ الفِطنة ويذهب بلبابة اللبيب .

على أن فطنة الحمار ، وهى أصيلة خافية ، تظهر أحياناً من تحت ستار بؤسه : ألا تراه فى رواحه أسرعَ منه فى غُدُوِّه . وأنه يستجيب للهمسة فيقف ، ويستجيب لأختها فيمضى : ويذهب به الزّبال بعربته على الأبواب ، فيسبقه من باب إلى باب : وهو لا يمضى عن باب حتى يحس بأن العربة أخذت نصيبها من قِمامته : وفى الجبال حيث تجرّ الخيولُ الأَحمال ، يجعلون على رأس قافلتها حمارا ، يتخير لها الطريق الصالح :

**

بقيت فلسفة الحمار ، وهى فلسفة عزيزة المنال ، لأنها فلسفة الصبر : تصورْ أنه على هذه الذلة وهذا الصَّغار ، وعلى هذا الفقر والعذاب ، تتفتح نفسه للحب : يا لها سخريةً بالأقدار !

قال لى حكيم ، بحكمة الحمير جدُّ خبير : إن الحمير إنما تتفتح نفوسها للحب حرصاً على أن تبقى منها نماذج فى الدنيا ، لتعين الإنسان على الصبر والتأسِّى ، وعلى حمل بلواه :

**

إنى أختتم بقولة قالها قبلى فنّان عظيم : إن دنيا لا ينهق فيها حمارٌ ، دنيا كئيبةٌ حزينة ، لا يطيب فيها عيش أو يتم هناء .

# علمتنى الحيـــاة

علمتنى الحياة أن الحياء المحضَ غيرُ نافع إذا لم تدْعمه من ورائه صفاقةٌ تظل دائما على استعداد أن تبرز وتظهر ، وأن تتقدم الصفوف فى زحام يضيع فيه الضعيف الغلبان. فالناس قلما يفهمون الحياء إلا ضــعفا ، والضعف يُغرى بالعدوان . والحياة بعد ذلك صراع ، قد يلطّف منه الناس بابتسامة ، ويثلمون حدّته بمصانعة ، ولكنهم جميعا يحملون خناجرهم فى أكمامهم فيُخرجونها من مخابئها إذا توقّف لهم أملٌ أو تمطّل مطمع .

وعلمتنى الحياة أن الحُسْنَى لا تكون دَيْدَن رجل إلا أزْرتْ به بين الناس . وهى تُزرى به بين العقلاء والجهال على الســواء ، وتُزرى به بين خبيث النفس وطيّبها ، وتُزرى به بين الأشرار وبين الأبرار، وتُزرى به عند من أُوتِىَ السفاهة ومن أوتى الحكمة . ذلك أن

> ولقــد خالطت الناس صنوفا وألوانا ، فلم أجد أحدا يمتاز فى الحكمة على أحد ، بالقدر الذى توحى به المظاهر . ووجدت أفرغ الأشياء الطبول .

الإنسان لئيمٌ بطبعه ، وما الكرم فيه إلا تطبُّعاً ، قال لى ذو معرفة قديمة يوما :

« إن هؤلاء الذين ترى من صِغار ومن كبار ، ومن صاحبِ كوخ وصاحبِ قصر ، وصاحب غنى وصاحبِ فقر ، ومن ذى رُتَب وسلطان ، وغير ذى رُتَب وسلطان ، كل هؤلاء إذا أردتَ أن تَسُود فيهم ، فانظرْ إذاً إليهم شزْراً ، وتربص بهم الفرص لتُوسعهم سبًّا وركْلا . وقد يكرهونك ، ولكنهم يخافونك ، وفى الخوف الإكبار ، ومن خاف فأكبر ، فعل فيه مركَّبُ النقص فتراجع لك وتقهقر » .

وكنت أستمع لذى معرفتى هذا فى غير تصديق كبير . وكان ذا لسان سليط . وهالنى من تلك التجربة على السنين أنى وجدته كلما أمعن فى خطته هذه ، فكرهه الناس، تقدّم صفوفهم . وكلما زادوه كراهةً ، زاد فيهم تقدما ، فلما بلغ فى المراتب مبلغاً أمينا ، عاد الكارهوه يحابُونه ، وعاد المخاصموه يصادقونه ، والمتجبّرون المتعجرفون ، المستأسدون المستنمرون ، عادوا ذئاباً وعادوا كلابا ، يَلعقون بالألسن ، ويُبَصْبصون بالأذناب .

وليست قصة صاحبى هذا ببدعة فى البدع ، فانظرْ لنفسك أنت ، واذكرْ كم يلقاك فى حياتك من ثِقال الظل الرافعين إلى

السماء مناقيرهم، وكم يلقاك من خفاف الظل الخافضين إلى الأرض أجنحتهم ، واحسبْ كم تبذل لهؤلاء من احترام وكم تبذل لأولئك . إنك تخاف الأولين فتتجنب أو تحترم ، وتعتذر بأنك تدفع شرًّا ، وتودُّ الآخرين وتألفهم ، وتُعطيهم حظَّ الأُلفة من رفع الكلفة ، وهى رفع من احترام .

* *

وعلمتنى الحياة ألّا يأس مع الحياة ، وأن النهار يُعقبه ليل ، وأن الليل دائماً يُعقبه نهار ، فلا دوام فى العيش لبياض ولا دوام لسواد . وما وقعتُ فى ضيق إلا انتظرت فرجا . ولا جاء الفرج إلا توقّعتُ ضيقا ، ولا حلّ بى مرض إلا صَبِرتُ أنتظر الشفاء ، فإذا حضر الشفاء عددت أيامى على الصحة فحمِدْتُ الله ، وحسِبتُ للمرض المعاود حسابا . وسواء ، فى الدرس على اليفاعة ، أو فى العمل على الشباب والرجولة ، لم أجد لليأس نفعاً إلا تَسْوىء العواقب ، والفتَّ فى الأعضاء . وكنتُ أرى الخير فى أن أغمض عينى عن الغاية المتخاذلة ، وأُعمل قدمىّ فى السير قُدُما فى ثبات وانتظام ، وعلى غير قلق ، فأجدنى ألحق بالقطار وقد همّ بالقيام أو كاد . وكثيراً ما لِحَقْتُه وتبحبحتُ فى مجلسى فيه ، وما صفر .

كذلك علمتنى الحياة أن لا أسرف أبداً فى رجاء ، وأن

لا أحلّق فى سماء الآمال بعيدا ، ولو شجّعتْ البشائر وابتسمت الأيام . ذلك أن الأمل إذا طال ، كان حبله كحبل طائرة الصِّفار ، إذا مددتَ فيه طولا ، أنذر بالقطع مع الريح . وهو قد ينقطع ، حين الطائرة فى زرقة السماء ، أزهى ما تكون ألوانا ، وأكثر ما يكون ذيلها اتزانا .

* *

وعلمتنى الحياة صحةَ ذلك المثل القديم : ما حكَّ جلدَك مِثلُ ظفرك . وعلمتنى الحياة أن الصُّحبة جميلة ، والصِّحاب أعوان ، ولكن علمتنى كذلك أن الصحبة محدودة ، والعون لا يأتى أبداً جُزافا . وأن الصحبة والعون ، أصدق ما يكونان ، وأصفى ما يكونان ، وأكثر ما يُبذَلان ، بين الصِّبْية والصبايا ، والأظفارُ لاتزال ناعمة ، والقلوب لاتزال طريّة ، والعواطف سائدة والعقول مَسُودة . ولن تجد التضحية كاملة شاملة جميلة كالتضحية بين شباب . ثم تذهب عن الأظفار نعومتها ، وتذهب عن القلوب طراوتها ، وتذهب عن العواطف سيادتها ، وتخرج العقول تملك زمام الحياة ، وتنظر فيما أسمَوْه العواقب ، فتعلم أن البذل المتكاثر له نتيجة تُسمَّى الحرمان ، وأن الكرم الشديد يؤدِّى إلى الفقر ، وأن واجب الإنسان لنفسه أولا . ثم لمن يعول ، ثم هو من بعد

ذلك للناس . وتثقل وطأة العيش فيدفع كلٌّ عن نفسه ، ويحتمى كلٌّ فى أنانيته . وتُذكَر الأنانيةُ فيحلفون أغلظ الأيمان أنهم منها بريئون ، وهم فيما حلفوا صادقون. إنهم أبرياء منها بالإيمان ، ولكنهم غير ذلك بالأعمال . كالرجل الذى يَدِين لربّه عقيدةً ، ولا يقيم له الفروض ولا يتقرب له بالحسنات .

**

وعلمتنى الحياة شيئاً من عناد ، هو عناد الفكرة ، أثبُتُ عليها ما اقتنعتُ بها ، ولو قام الخمسةُ الرجالُ والعشرة من حول المائدة يدلّون على بطلانها . وقد تُزعزعنى المعارضة القويّة فأكاد أتّهم بَصيرتى ، ثم أعود إلى نفسى أقوى ما أكون إيمانا بها .

ولقد خالطتُ الناس صنوفاً وألوانا ، فلقيت الصغير ولقيت الكبير ، ولقيت الشاب ولقيت الشيخ ، ولقيت الجاهل ولقيت العالم ، ولقيت ذا الجاه ومن لا جاه له ، فلم أجد أحداً يمتاز فى الحكمة على أحد بالمقدار الذى تُوحى به المظاهر ، ووجدت أفرغ الأشياء الطبول . وتلك الأسماء الطنانة ، وتلك الشخصيات البارزة فى المراتب البراقة . خَبَرْتُ القليلَ منها فحمِدْتُ ، وخبرت الكثير فقلت مع ابن الرومى :

أن للحظّ كيمياءَ إذا ما مسّ كلباً أحاله إنسانا

**

وعلمتني الحياة أن الرجل ذا الرأى المَشُوب بالهوى ، رجل ذو ضرر بالغ يُدافَع ويُحارَب ، ولكنْ أولى منه بحرب ، رجلٌ لا رأى له ، يحضر المجالس ، وهى مسئولة ، فيجامل ويصانع ، ويحتمى من الحرج فى السكوت : لقد حضرت مجالس كان حاملُ الرأى فيها والنافذُ به رجلاً واحداً ذا جرأة ، وهو على الهوى ذو فصاحة . فكرهتُ منه ما كرهت . ولكنْ كرهتُ فلم أُطِقْ ، تلك الأصنامَ المرصوصةَ على الكراسىّ من حوله ، تسمع الخِزْى ولا تقول شيئا . ويخرج الرأى فيقال رَأَى المجلسُ ورأى، وما رأى غيرُ فرد طوى بالمجلس ورجاله ، فى حيث يخرج الطعام من سرواله .

وعلمتني الحياة أن المجالس ، وهى أحسن ما تكون ، وأكفى ما تكون ، وأحفظ ما تكون لنفسها كرامة ، إذا أجازت فهى لا تُجيز الحق ، ولا تُجيز الصواب . إنما تجيز ما تراه الكثرة حقاً وما تراه صواباً ، وما كانت كثرةٌ دائما على حق ، وما كانت قلة دائما على باطل، ولكنه أسلوبٌ لتصريف الأمور ليس منه بديل ، ولا للناس عنه مَحِيد . من أجل هذا لم أتحرج قط من أن أقف فى قِلة ، ولم يُزْهنى قطّ أن أقف فى كثرة ، ففى الأولى احتمال الصواب وفى الثانية احتمال الخطأ ، وإنما الأعمال بالنيات .

وعلمتني الحياة . . . . . . . . وعلمتني . . . . . . .

# حب الأوطان

ليحى الوطن ، ولتحى مصر ، ونحن نحب الأوطان .

كلمات كنا نقولها على الصبا فى صوتٍ جَهِير ، وفى غير فهم كثير ، أيامَ الأحاسيسُ هى المرهفة ، وهى الغالبة ، وهى المتسلّطة ، وأيامَ الفكرُ منضمِر متخاذل، قد زَحمته العواطف ، فدفعته ، فانزوى إلى جانب الطريق يفسح للموكب المتدفق السبيل .

وتمر الأيام فيصبح الصبىّ شاباً ، فرجلا ، فكهلا ، فتقل عاطفته ويزيد فكره ، ويضعف صراخه ويقوى منطقه . وقد يستحى أن يهتف مع الهاتفين ، إلا أن يكون سياسياً من صناعته الهُتاف ، ومع هذا فهو يجد فى القرارة من نفسه ، وفى المهجة من قلبه ، عاطفة قوية جامحة ، كعاطفة الحب على الشباب الجامح ، هى حبُّ وطنه ، وحب أهله وعشيرته : وهو إن لم يهتف للوطن بحياة ،

> ليس حب الأوطان وقفاً على جيل دون جيل ولا قبيل دون قبيل . والحسب بدأ بآدم .

هُتافاً يشقّ الهواء مسموعا ، فهو يهتف به فى حنايا نفسه هتافاً ترنّ فى جنبات النفس أصداؤه ، فيهزّ جدرانها ، وينال من أعصابها.

نعم .. إن حب الوطن ليس وقفاً على عمر دون عمر ، ولا على جيل دون جيل ، ولا على قبيل دون قبيل ، وأحسَبُه بدأ مع آدم . تلك الألفة التى يألف بها القلب المكان ، ويألف العيش ، ويألف من صَحِبَ من الناس . ولما كانت الألفة تزيد على السنين ، فهى تزيد بتقدم العمر . فإن ذكر الشباب الوطنَ بما قَضَى فيه من طفولة وصبا ، ذكر الكهل الوطن بما قضى فيه من طفولة وصبا وشباب واكتمال ... فكان بالذكْر أعلق ، وبه أمتع ، وللوطن من أجل ذلك أحب :

وحبّبَ أوطانَ الرجال إليهم ... مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمو ... عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا

* *

والشاب قد يفتدى وطنه حبًا فى سَوْرة من سورات الشباب تَحجُب عنه العواقب . والشيخ قد يفتدى وطنه ، ولكن على ثقة وعلى علم بالعواقب . وعلى مثل هذه الثقة ومثلِ هذا العلم افتدَى ريجليوس الشيخُ الرومانى المشهور وطنه ؛ وصار مضرب الأمثال فى حب الأوطان ، عند رومان وغير رومان . وحاربتْ

روما قرطاجنّةَ وغلبتْها بحراً . وعادت الأخرى فغلبتها براً . ووقع ريجليوس ، وهو قنصل روما وسيدها وقائد جيشها ، وقع أسيراً في أيدى القرطاجنيين . ثم فكوا إساره على أن يعود إلى روما فيُفْدِىَ قومه ، إما بالصلح وإما بافتدائه بعدّة من أشرافهم وقعوا فى أسر روما . فإن لم يكن صلح أو افتداء ، عاد إليهم أسيراً . وحلف لهم بشرفه أنه يعود . واجتمع شيوخ روما فى مجلسهم يتشاورون . وقام ريجليوس فيهم يبدى رأيه . فإذا به لا يرضى للحرب وقفاً ، ولا يرضى عن افتداء نفسه بفكاك الأسرى . وإذا به يقول لهم إن صالح الوطن فى غير هذا وهذا ، وإنه رجلٌ شيخٌ لم تَبْقَ منه بقيةٌ تُرْجَى ، وإنه هامَةُ اليوم أو غد . وتردّدوا فى الحكم فقال لهم : «علام التردد ؟ وفيم حبسكم إياى عن العودة لأختتم أيامى الطويلة بيوم للفخار كبير ، أستقبلُ فيه عذاباً شديدا ، ولكنّه عذابٌ قصير ، أُرقد بعده رقدة الأبد ، على الراحة والطمأنينة ؟ » .

وأقرُّوه على ما رأى . وقام يودّعه أهله والصحاب ، على قلوبٍ كسيرة وأعينٍ دامعة . . وسار إلى موت لا شُبهة فيه ، ولقِىَ قبله من العذاب ما ظن أنه ملاقيه .

* *

وحبُّ الوطن كـكل حب ، لا يحسّ به صاحبه حتى يمتنع ، وتمتنع أسبابه ، وتجف منابعه وتنحبس أفاويقه . كالثدى لا يفتقده الطفل كافتقاده عند فِطام .

قيل لأعرابى : « أى بنيك أحب إليك ؟ » قال : « الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يَبرأ ، والغائب حتى يؤوب » .

والوطن أحب ما يكون عند الغائب حتى يؤوب . وقد ينام حبُّ الوطن فى قلب أهله ، حتى توقظه الغربة ، فيصحو على الصراخ والعويل . ونعيم العيش فى غيبة الوطن يَهُون ، وتعزّ السلوَى ويغلُبُ الأسى :

بِمَ التعلّل لا أهل ولا وطنُ ولا نديم ولا كأس ولا سَكَنُ

هكذا قال المتنبى فى غير شرخ من شباب . ولقد اغترب المتنبى كثيراً . فأحب وطنه كثيراً . وجاء العيد ، وهو محرك الذكريات ، فما احتفل فى غربته بعيد ، وود لو أن بينه وبينه الصحارى والبيد :

عيدٌ ، بأيةِ حال عُدْتَ يا عيد بما مضى، أمْ لأمرٍ فيك تجديدُ

أم الأحبة فالبيْـداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيد

**

وأهل المهجر الأمريكى، ماذا صنعوا بعد أن خلّفوا الأوطان ؟

تشبثوا بها ، وتشبثوا بلغتها ، فكانت لهم فى المهجر البعيد صحف بالعربية ، واجتماعات يؤكل فيها الطعام عربياً ، ويُشْرب الشراب عربيا ، ويَجْرِى الحديث عربياً صميماً ، عربىّ اللفظ ، عربى الموضوع . وخلف منهم خَلَفٌ لم ير الوطن العربى ، ولكن بقى فى قلبه منه بقية شوق . دخلتُ مطعماً هناك ، أنا وزميلى المصرى ، وجرى الحديث بيننا عربياً . وكان حامل الطعام بالمطعم شاباً وسيما ، لاحظت أنه كان يَرْكَن إلينا طويلا على غير عادة . فنظرت إليـــه نظرة استفسار . قال : « بالله استرسلا فى حديثكما . . فإن جرْس هذه اللغة يذكّرنى بأمى الذاهبة . إنى لا أفهم شيئاً ممـا تقولان إلّا كلمات يكفينى منها أنها تذكرنى بطفولتى الحبيبة » .

نعم . . لم يبق من وطنه القديم من صلة إلا طفولةٌ قصيرة ، قصّرتها وفاة أم عزيزة .

وسيأتى من بعد هذا الخلف أخلاف ، تختلط فيها الذكريات وتنبهم ، ويحلّ جديدٌ منها محل قـديم ، وتُستبدَل فيها أوطان بأوطان .

# أصحابى الذين خابوا

الدنيا حظوظ . هذا ما ارتأيته من زمن بعيد ، وهو هو ما أراه اليوم ، من أجل هذا لا أحمد كلَّ الحمد من ينجح فى الحياة ، ولا أذمّ كلَّ الذمّ من يخيب فى الحياة . ذلك أننا ، حتى إذا اعتبرنا من ينجح فى الحياة بناء على ما عنده من مواهب ، واعتبرنا هذه المواهب ، لوجدنا أن المواهب من الهبة ، فهى أشياء تُعطَى ولا تُكتسَب .

إن الموهبة شيء قد يربو على العمر ويزكو ، ولكنه لا يربو ولا يزكو من عدم . فهو يولد مع الوليد ، حتى لقال العلماء إن الرجل يتمّ تكوّنه فى عامه الأول ، وقصدوا بذلك أنك لا تستطيع أن تغيّر الطفل ولا تغيّر أصول طباعه ومواهبه ، بعد عامه الأول .

إن الملاح قد تنقلب به السفينة ، على الرغم من الجهود الشاقة ، وعلى الرغم من المهارة والنية الصادقة ، لأن الموج كان أعتى وأغلب

وسواء آمنتَ بهذا القول أو لم تؤمن ، فهو يؤكد ما نريد إيضاحه من أن مواهب الرجل منا ، ومواهبَ المرأة ، تولد أصولها مع ميلادها أو ميلاده .

ثم تأتى البيئة من بعد ذلك فتؤثر فى هذه الطباع ، فى هذه المواهب ، إمّا سلباً ، وإما إيجابا . والبيئة نفسها ليست من صنع الإنسان . إن الإنسان وأشباهه من سائر الحيوان تتميز جميعها عن النبات بأن لها أرجلا ، رجلين أو أربع ، أى تتميز بالحركة ، ولكن الإنسان ، فيما يختص ببيئته ، له حركة كالسكون . إن الفرد منا يرتبط بالبيئة ارتباطَ النبات بأرضه ، وهو لا يستطيع أن يقتلع نفسه من بيئته ، ولا أن يتحرك بعيداً لأن فى ذلك تمزّقَ جزوره ، وجفافَ ماء الحياة فيه وتقطّعَ أسبابها . وهو إلى سنّ كبيرة لا يخطرله فى بال أن يتزحزح عن البيئة إن لم تكن صالحة ، ولا يخطر له فى بال أن يتّهم البيئة ، لأنه هو بعضها ، وبعض الشىء لا يثور على سائره ، ولأنه هو عبدُها ، والعبدُ قل أن يثور على سيده .

ثم الفُرَص ... إن فى البيئة الواحدة ، تغدو فرص الحياة وتروح . والفرص ليست من خلْق الإنسان ، ولا هى بالشىء الموقوت الذى يُعْرَف له ميعاد فينتظَر ، أو يُعرَف له اتّجاه فيجلس الناس فى طريقه . إن الفرص سوانح ، وهى كسوانح الطير وبوارحِهِ ، قد تترصّدُ لها الساعةَ من بعد الساعة ثم لا تجىء ، وإذا هى جاءت ، لزمك إحسان الرمى لتصيبها ، وليس كل الناس له يحسن . إن الرمى لا يحسنه فى الناس إلا القليل ، لهذا

لا ينجح فى الناس النجاحَ الصريحَ الذى لاشكّ فيه غير القليل .

فدون النجاح فى الحياة عوائق، هى ضروب ثلاثة ، عوائق من طباع، وعوائق من بيئة ، وعوائق من فرصٍ تأتى ثم تُفلِت وقد تتجمَّع فتجعل النجاحَ أعسرَ من دخول الجنة . ولكن كثيراً ما يُسعف الطبع وتسعف البيئة وتأتى الفرص فتقف عند بابك . فتصبح الموانعُ من النجاح دوافعَ إليه ، وندَرَ أن تجتمع كل هذه دفعةً واحدة لرجل ، إلا رجلا اصطفته الآلهة — كما زعم الإغريق — للإعزاز والتدليل .

* *

إن النجاح أكثرُ ما يُكتسَب غلاباً وصراعاً. وكل رجل منا كالملّاح فوق سفينته ، فقد يسكن له الماء ويهبّ الريح على هواه ، ولكنّ الماء أكثر ما يكون مضطرباً تنشره وتطويه الأمواج ، والريح أكثر ما تكون عاصفةً هوجاء ، فيعمَد الملّاح عندها إلى ما أسموه فى لغة البِحار الصفحَ والإصلاح ، فيقتبس من الريح ، وهى تعارضه ، نصيباً يدفعه ، يدفعه إلى حيث ما يريد هو لا إلى ما تريد الريح . ويصل إلى غايته أخيراً ، وبعد مشقة ، وبعد زمن يَقصُرُ أو يطول . وقد يطول الزمن فوق ما يطول العمر ، فيفنَى الرجل المجاهد كما تفنَى الموجةُ فوق سطح الماء ، وفى نفسه لُبانةٌ لم تُقْضَ ، وفى قلبه من أجلها حسرة . وقد تنقلب

به السفينة على الرغم من الجهود الشاقة ، وعلى الرغم من المهارة والنية الصادقة ، لأن الموج كان أعتى وأغلب .

والناس لا تفهم من الأشياء إلا غاياتها ، ولا ترى من هذه المعارك الدائمة الدامية إلا خواتيمها ، وهم فى سباق الحياة ، كما هم فى سباق القوارب ، يتكوكبون عند الهدف الأخير يصفقون للرجل الذى وصل أولَ واصل بأولِ قارب . أما سائر القوارب فتُنسَى . أو هى لا تُنسَى ، لأنها لم تُذكَر قط ، ولن تُذكَر أبداً . والناسُ من يَلْقَ خيراً قائلون له

ما يشتهِى وَلأمّ المخطِئ الهَبَـلُ

**

وأنظر إلى إخوانى وأصحابى ، و لزملاء الذين نجحوا فى الحياة ، والذين خابوا ، فأجد أثر المولد أحيانا ، وأحياناً أثر البيئة ، وأحيانا أثر الفُرَص ، وأجد هذه الآثار تعمل عملها ، منفردةً أو مجتمعة ، كسباً أو خسارة .

فصاحب كانت تبشر أكثر البشائر بأنه خُلِق لينجح . ذكاءٌ مُفرِط ، ومولدٌ فوق فراش من حرير ، ومالٌ للتربية وفير . ولكنه لم ينجح ، أو لعلى أكون أقرب إلى الصواب إذا قلت إنه لم ينجح النجاح الذى أملوه . والسبب فى ذلك البيئة . فالبيئة

كانت بيئة راحة . كانت بيئة الطعام المختار ، واللباس الأنيق ، والسيارة الفخمة ، فلم يكن له على العمل من دوافع إلا الرغبة فى أن يكون بالتعليم وجيها من الوجهاء . وهو دافع أضعف من قوته أن صاحبى وُلِد وهو نصف وجيه . وبعد ختام التعليم الثانوى تهيأتْ له الفرصة ليختار مدرسته العالية ، فاختار أبعد المهن عن الرفاهية وأقلّها شبها بكسل النعمة . اختار الهندسة . وبعد لأْيٍ وصل إلى غاية المطاف منها . ولكن ماذا صنع فى الحياة من بعد ذلك ؟ لا شىء . خمولٌ فى الذكر ، وخمولٌ فى البيت ، وذكاءٌ مفرطٌ تثلّم على الأيام ، كسكين الفولاذ الذى صَدِئَ من طول تركه .

وصاحب آخر، ولن أسميه ، ولو أنى سمّيته لعرفه الكثير . فهذا على نقيض ذلك . وُلِد على السرير المتواضع ، ونشأ على العيش الأخشن ، ولم تهبه الطبيعة ذكاء زائدا — ونقول هذا تأدّبا — ولكنها وهبته الصحة ، ووهبته الجَلَد على العمل ، وكلاهما صفتان من صفات أبيه التاجر . وعرف أبوه بالتجربة أن الحياة بها فرص تُنتهَز فَطفِق ينتهزها لولده حتى كان تعليمه كله بالمجان . وذهب إلى أوروبا أيضا بالمجان . فكان له النجاح الذى يحسده عليه كل الناس ، وصار لِىَ المثلَ الناطق والشاهدَ

الذى لا يَكذب ، بأن الذكاء ليس لازما للنجاح لزوم العمل المتواصل . بل كدت أومن بأن الغباء على الجِدّ أنجحُ للمرء من ذكاء يصحبه تكاسل وتخاذل وارتخاء .

* *

وصاحب ثالث ، تهيأت له أسباب النجاح ولكنه خاب . اختتم دراسته بنجاح ، وحلّ من جدوله النجاح سطورَه الأولى . وكان فَطِنا ، وذا لسان . وكان للناس عليه إقبال . ولكن أضرّ به أن أباه كان فقيها ، فوَرِث عنه البصرَ النظرىّ ، وورث معه التردّد الذى يَرَى دائما أن فى الأمر قولين . فهو يفكر فيُحسن التفكير . ويُخرّج فيحسن التخريج . حتى إذا جاء وقت العمل تخبل ، فلم يستطع أن يَصْدع بالذى يرى . والفكرة عنده تدور فى رأسه ثم تدور ، يحاورها وتحاوره ، ويدوارها وتداوره ، حتى إذا ظن أنه فاعل ، تمهل يؤدى أعمالا تافهة يُمهّد بها للذى اعتزمه ، أو هو هكذا ظن ، وما هى إلا مَهربا أو مهارِب مما ظنّ أنه فاعله . وهو قد يتشجع على العمل أخيراً ، ولكن بعد أن يكون قد أجهده الفكر فأفرغ جهدَه ، فلم تبق منه بقيّةٌ تُعين على عمل . كالرجل الذى أجهده السهر ، فما أصبح الصباحُ سعى على ساقٍ متخاذلة لاتقوى على السير ، وعينٍ متثاقلة لاتكاد تتفتح على هدًى .

وصاحب رابع نجح نجاحا باهرا إلى أن صار ابن خمسة وعشرين . وأنظر إليه اليوم وقد فات الخمسين أو كاد ، فلا أستطيع أن أقول إنه نجح فى الحياة . إنه يعيش عيشة طيبة هادئة كعيشة بعض الناس ، ولكن أين هى مما أملاه ودلّتْ عليه مخائله ؟ وأدرس أمره فأعزو تلك الخيبة إلى أنه لم يكن له غاية فى الحياة . وكيف يكون النجاح بدون غاية ؟ بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

ذكرنى هذا بالفتاة « أَليس » ، فى الكتاب العالمى الشهير « أَليسُ فى بلاد العجائب » ، جاء فيه أن « أليس » وقفتْ عند مفترق الطرق ولا تدرى أىَّ طريق تأخذ . وجاءت قِطّةٌ تسعى . فنادتها الفتاة وسألتها : أىَّ هذه الطّرُق آخذ ؟ قالت القطة : هذا يتوقف على أية غاية تقصدين . قالت الفتاة : ليس لى غاية . فقالت القطة : إذن فخذى هذا الطريق أو هذا أو هذا .

ثم صاحب خامس وسادس وسابع . . . . . . قليلٌ نجح وتقدّم ، وكثيرٌ خاب وتأخّر ، واتصلت أسباب النجاح فيهم والخيبة بإِرث من مواهب قد يَرخص وقد يغلو ، وبيئةٍ قد تَصلح وقد تفَسد ، وبفُرَص قد تحضر وقد تغيب ، ثم يتيقظ المرء لهذه المؤثرات جميعاً ، يستغلها إن أعانت ، ويرتفع فوقها إن أعاقت ، فيجاهد ويصابر ، والعاقبة دائماً للصابرين والمجاهدين .

# قِطّـــةُ الجارة

قِطّنا الذكرُ أولدَ قِطّةَ جارتنا قِططا . ولم يَدْرِ الخبيثُ ما صنع ، ولم تدر صاحبته . ولم يَدُرْ فى خَلَده ، أو خلدها ، من بعد تلك الفعلة الشنعاء ، مايدور فى عقل الرجل والمرأة ، أن من بعد هـذا اللقاء الولد . وعملتْ يدُ الله ماتعمله فى ظلال الأرحام جميعًا ، فشكّلت أبدعَ تشكيل وسوّتْ أحسن تسوية ، فإذا القِطّةُ ترى حولها خـلائقَ صغيرة ، تلوذ ، على عماها ، بأثدائها . وإذا القِطّةُ تجد فى هذه الأثداء حَلَبا لم تَدْرِ كيف جاء . وإذا الخلائق الصغيرة تربو وتنمو ، حتى إذا اشتدّ ساعدها تفرّقت فى الأرض ، فلم تَدْر ماأمُّها ، وما كانت دَرَتْ ما أبوها . ولم تَدْرِ ما أختها وما أخوها . واستقبلتْ الحياة ، لاعمّ لها ولاخال . كلّ إرثها ، إرثُ جميع القطط ، مِخلبٌ وناب . وكُلّ مدرستها ، مدرسةُ الطبيعة ، يعلّمُها أذى الكلاب

> إن الذى أريده منك ، أن تفعل ما تفعل القطط ، تقذفها الناس بالأحجار ، ولكنها تثبت على البيت الذى خرج منه الحجر ، لأنها تعلمت بالتجربة أن البيوت كلها بها محصول من الحجر وافر

كيف تهرب ، ويُملّها مَذاقُ الخير عند أهل الخير كيف تتحبّب .

وتتبّعتُ هذه القِطَطَ الصغيرة فى الحياة حيناً ، وقد جرت فى سوقها فريدةً وحيدة : ووجدتُ لها ، من ذكر وأنثى ، حظوظاً متفاوتة ، ووجدتُ بينها البائسَ والناعم ، والجائعَ والطاعم ، وما له مأوى وما لا مأوى له : ووجدتُ منها ما يستقبله الناس على قُرْبٍ ، بمرّ الأيدى الناعمة على شعره الوثير ، ووجدتُ منها ما يستقبله الناس على بعد ، بقذف الحجر ، ويودُّ المقذوف بالحجر أن يتقرّب ، وأن يتودّد ، فيُخطئ سبيلا .

فقلت فى نفسى : ما أشق العيش صنعة !

إن القطط لا تزرع ولا تَحصُد ، وهى لا تعرف الصناعة وما التجارة ، ولا تعرف ما التوظّف وما الترقى ، والصيْد الذى رسمته الطبيعة ليكون سبيلَ رزقها الأوحد ، باعد بينها وبينه ما باعد ما بينها وبين البرارى والصحراء ، موطِنها الأول . فأصبح اعتمادها فى الرزق على شىء واحد : على حُسْن العلائق بالناس . على حسن العلاقة بينها وبين طبّاخ البيت ، وحسن العلاقة بينها وبين ربّة الدار ، ربةِ الطبّاخ والمطبخ . وحسن العلاقة بينها وبين أطفال البيت ، لا سيّما بناتُه ، وهذه أمتنُ العلائق ، وأوثق العرى .

قال صاحبي : فما العلاقة بين القطط وما نحن فيه ، وما أشكو منه ؟

قلت : العلاقة حُسْن العلائق بالناس . أنت طبعاً أحسن حالا من القِطّ من حيث تبدأ الحياة . فأنت تبدؤها ولك البيت والأهل ، ولك البِطانة التي تأخذ بيدك ، وتأخذ برجلك ، وتعلّمك أين تسير وكيف تسلك . وأنت تستطيع أن تعمل وأن تُنتج ، وأن تكون طبيباً ماهراً ، أو مهندساً ماهراً ، أو عاملا ماهراً . ولكنك عائد آخر الأمر لتكون كالقطط ، عمادك على الناس . إنك لا تستطيع أن تكون هذا ، أو بعض هذا ، إذا أنت لم تكن قادراً على أن تجعل ما بينك وبين الناس عامراً ، وأن تجعله موصولا ، وتجعله صافياً . أو إذا هو تعكّر ، أن تحتمل العَكَر ، وتحتمل القذر ، وتحتمل الأذى . إنك يا صاحبي ذو حسٍّ مرهف ، تُسيئك الكلمة النابية ، والنظرة الجافية ، والفَعْلة النكراء ، فتُجفل منها وتُعطى ظهرك للدنيا . إن الذى أريده منك أن تفعل ما تفعل القطط ، تقذفها الناس بالأحجار ولكنها تَثْبُتُ على البيت الذى خرج منه الحجر ، لأنها تعلمتْ بالتجربة أن البيوت كلَّها بها محصولٌ من الحجر وافر . سوف لا يُغنيك أن تتحول عمّا أنت فيه ، فإنك حيثما تحولْتَ ، ستجد الأرضَ هى الأرض ،

والسماءَ هى السماء ، والناسَ هم الناس .

إننا ننكر من الطبيعة الجامدة أشياء . ننكر منها الحرّ فى الصيف . وننكر منها البرد فى الشتاء . نشكو السماء إذا هى على البلل أمطرتْ ، ونشكوها إذا هى على الجفاف أقلعت ، ونَضِيق بالرياح إذا الرياح بالرمال سَفَتْ . ومع هذا نصبر على أسواء هذه الطبيعة الجامدة ، وعلى أجوائها . فما بالنا لا نصبر على أسواء الطبيعة الحيَّة ، وأجوائها ، أجواءِ الناس ؟

إن فى الناس غِلَظاً ، وفى الناس غروراً ، وفى الناس جفاء ، وفى الناس ثِقَلا ، وفى الناس خُبثاً ، وفى الناس بذاءة ، وفى الناس كيداً ، وفى الناس مَوْجِدةً ، وإن فى الناس كثيراً من صفات لا حصر لعددها ، امتلأت بها كتب اللغة ، وفسَّرتها القواميس مِنْ يوم أن عُرفتْ الكتب ، وعُرفتْ القواميس ، وعُرف الكلام . لا شكّ فى هذا . والناس فى لِقاء هذا الأمر رجلان : رجلٌ يَضِيق بما يَلقَى من عَنَتٍ ، فيتجنّب ، ويتعزّل ، ويرضى من العيش بأن يعيش على هامش العيش . وقد يَعزِف كل العزوف ، فيترهّب ، ويدخل الدير . ورجلٌ يرى أنه ، مادام قد وُلِد فى الناس ، فلا مفرّ له من خوض غمار الناس إلى الغاية المرسومة ، لا يبالى ما يلقَى فى الطريق من أقذاره وأوحاله ، وما قد

تَدْمَى منه قدماه ، وما قد تتمزّق به ثيابه ، ولا يُعدّ هذا كلّه إلا كبعض وَعْثاء السفر وترابه .

قال صاحبي : إن التراب يغسله بالماء .

قلت : والإساءات يغسلها النسيان أو التناسي . هذا إذا أنت لم تُعْطِ الناس فوق ما يجب لهم من خطر ، وتُكبر أمورهم فوق ما يستحقّ لها من إكبار .

قالوا إن الدين المعاملة ، وأقول إن العيش المعاملة . والمعاملة بين الناس شاقةٌ حتى على النيَّة الحسنة . إنه التوفيق بين شيئين قلما أن يكونا خُلِقا ليتّفقا ، والتنسيق بين أمرين قلما دُبِّرا ليتّسقا ، والتعشيق بين تُرسين من فولوذ فى مَكِنة الحياة ، قلّما أن يكونا صُبّا ليتعشّقا .

إنى لا أسمع بعروسين قد دخلا الحياة ليمارسا أمور العيش معا حتى يجود لهما قلبي بالكثير من الرحمة ، وأدعو لهما أحرّ الدعاء ، أن يكون بينهما توفيقٌ وتنسيق وتعشيق . فَرْدَان غريبان ، غريبان فى النشأة ، غريبان فى المشرب ، غريبان فى المِزاج والمَذاق والنظرة ، غريبان فيما يُحبّان ويكرهان ، يُفرَض عليهما أن يجتمعا ليتّفقا ، ولتزولَ من بينهما الفروق .

ثم يقال لقد وفّق الله .

إنها معجزة لا بد أن يُقرَن بها اسمُ الله .

# دفاع عن القديم

خاف صاحبي أن يكتب فى « الدفاع عن القديم » ، خشيةَ أن يقال رجعيٌّ ذو رأى عتيق : وقالوا اكتبْ أنت فلستَ فى ذلك بمتهم . فقلت أىْ والله ، سوف أكتب فلا أقول إلا حقا .

* *

إنى لأعجب لهذه الشمس وهذا القمر وهذه النجوم ، إذ تُشرِق ثم تغرُب ، ثم تُشرِق ثم تغرب ، فتسبّب الناس كلّ هذا العَنَت ، فيقولون هذا أمسٌ وهـذا غدٌ ، وهذا ماضٍ وهـذا مستقبلٌ ، وهذا قديمٌ وهذا مستحدَث .

> إن الشيء القـديم قد يحسن ، ولا يستطيع فوات الزمن أن يغير من حسنه . والشيء الحديث قد يسوء ، ولا تستطيع حداثته أن تقلل من سوئه . وأكثر أصول الحياة ثابت ، لا يتغير مع الزمان .

إن الشمس وإن القمر وإن النجوم، بدورانها، أعطتنا معـنى الزمان، وأعطتنى مع هـذا المعنى معانىَ تبثّ فى الأفئدة الخوفَ والرجاء، وتبثّ فيها الكراهة والحب ، فنحن نخاف الغد أو نرجوه ، ونحبّ الأمس أو نكرهه، ونعيش فى اليوم ،

فى الحاضر ، ولكن قلّ أن نعيش فيه . بعضنا يعيش اليوم ، فى أمسه ، ترحّما وذكرى ، وبعضنا يعيش اليوم فى غده ، تطلّعاً وأملا .

إن الزمان جلب على الناس الهمّ ، وجلب القلق ، وجلب الريبة ، فأورث النفوس الغَثَيان ، وأورث القلوبَ الخفقان .

إن الزمان فكرةٌ من خلْق الإنسان ، وكثيراً ما ودّ خالقٌ أن يحطِّم خلقَه .

**

ومما جرّ الزمانُ على الناس من أَعنات ، معنى الجِدّة والقدم ، والمقارنةُ التى لا تهدأ أبداً بين عَصْر يُستقبَل وعصر يُستدبَر .

وقد قال الناس كثيراً فى معنى الجِدّة ، ودافعوا عن الحداثة حتى اختلّ الميزان فرجح ، وآن للقِدَم أن يتحدّث ، ويُلقِى فى كفته بأثقاله ليعتدل العاتق ويستقيم الميزان .

فأول ما يقال فى القدم أن الله قديم ، وأن الكون قديم ، وأجرامه قديمة ، وأن أمّنا الأرض قديمة ، وأن النبت والتنبّت على ظهرها قديم ، وأن دبيب الحياة من فوقها قديم . وأن المضْغ قديم ، والهضم قديم ، والنسل قديم ، وبذورنا الأولى مُوغلةٌ فى القِدم حتى ما نعرف لها أولا . وأن العقل القديم هو الذى ابتدع

البيتَ الذى يُبنَى ، والمِلاطَ الذى يُمسك أحجاره ، وابتدع اللابس سكَناً يُلبس ثم يُخلع ، وابتدع السكين ليقطع ، وابتدع المِقص ليجزّ ، وابتدع المِنشار الذى يأكل من الخشب ويأكل من الحجر ويأكل من الحديد . وابتدع العجلة وهى عماد كلّ حركة ومَدارُ كلّ صناعة . وابتدع السفينة قلعَها وسُكَّانَها .

والفكر القديم هو الذى ابتدع هذا الورق ، وابتدع القلم ، وابتدع الأحرف وابتدع الكلمات ، وابتدع الحديث ، وابتدع النثر والشعر .

والشعر القديم له الجرْس الحبيبُ والديباجة المتينة والمعنى الحلو ، وليس له مذاق البول تبوله الأبقار .

والأشربة أحسنها قديمها ، والخمر أجودها العتيق .

عُتِّقتْ حتى لو اتصلتْ بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحْتَبتْ فى القوم ماثلةً ثم قصّتْ قِصّةَ الأُمم

ومن الأطعمة ما يجود على التعتيق ، ومن ذلك الجبن والفسيخ . والبصل الطازج ، أشهى منه ما تعتّق فى الخلّ . والخُضر تطيب على التمليح والتعتيق .

* *

والناس تفخر فتنتسب دائماً إلى الماضى ، فيقولون فعلنا قديماً ، وفعل أجدادنا ، ونحن أبناء الفراعنة الشِّداد ، والعرب الأمجاد ، فلا بد أنهم كانوا على قِدَمهم، من الحمد بحيث يكونون أهلا للفخر .

والحبّ قد يجىء من بعد حبّ ، يجىء من بعده الحبّ ، ومع هذا يظلّ يتعلّق القلب من هذه بأقدمها ، ومن الأحباب بمن يقع فى كتاب الذكريات فى الصفحة الأولى :

نقّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحبُّ إلا للحبيب الأولِ
كم منزلٍ فى الأرض يسكنه الفتى
وحنينه أبداً لأولِ منزل

والمعلِّم الأول أكبر أثراً فى النفس وأثبت صورة فى الخيال ، ممن يأتون من بعده ممن هم أجدّ على الزمان .

والوفاء قديم ، والكرم قديم ، وكل خُلُق كريم قديم ، أو بذلك تجرى الشائعة ، وكثيرٌ من الشائعات صوادق . وفى الوفاء يقول الناس : من فات قديمه تاه . والقديم هنا ليس فقط الصديق القديم ، ولكن الأمُّ وهى قديمة ، والأب وهو قديم ،

وعلائقُ القِدَم جميعها ، فهى روابط تربط صاحبها بالأرض ، كما تربط الأحبالُ السفنَ فتحفظها من الرياح والهُوج .

والموسيقى أفعلها فى النفس أقدمها . وأوربا تعيش بالروح على موسيقى أسمتها الكلاسيك ، أى تلك التى اكتسبت الحياة على رغم الزمان ، وبرأها وخلّدها كرّ الجديدين .

والفن قديم ، الفن فى الحجر ، والفن على القماش . لقد أحسن القدماء فيهما فما كادوا أن يُبقوا للأخلاف مزيداً :

* *

والقديم يعطى الحديث معناه ، ويعطيه الكثير من مبناه ، فلو أن الرجل منّا خلق من غير أمس ، لمضى بحكم الطبع يتساءل عن أمسه كيف كان ، ويتساءل عن أحداثه . والتاريخ : ما اهتمام الناس بالتاريخ يحفظون كتبه ، وهى مجلّدات ضخمة عديدة ؟ ثم هم لا يكتفون بالكلمة المكتوبة فيحفرون الأرض يبحثون وينقّبون عن أسطرٍ أخرى كتبها الزمان فى الحجر ، وفى الحُفَر ، تزيد الحاضرين من أهل الأرض بالذاهبين علما .

ونحن ، الحاضرين اليوم من أهل الأرض ، لا نفهم معنى الحياة إلا من التجربة التى قاساها الغابرون من أهلها . فالحياة قديمة ، والفناء قديمٌ ، وهما يتعاوران أهلَ الأرض حَديثهم

والأقدمين . ومن القديم يفهم ويعلَم المستحدَث :

في الذاهبين الأولي ـن من القرون لنا بصائر

لمّا رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مصادر

ورأيتُ قومي نحوها يمضي الأصاغرُ والأكابر

لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر

أيقنتُ أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

هذا قسّ بن ساعدة ، وهو رجل قديم ، عاش منذ ثلاثة عشر قرنًا ، وتعلّم ممن هم أشدّ منه قدمًا . وشعره قديم فيه حلاوة القدم . وفيه المنطق البسيط ، منطق القدم .

**

أما بعد ، فقد قلت في القدم كل شيء ، إلا الشيء الذي لعل القارئ انتظره . ذلك الجانب الذي جرى العرف فيه بالربط بين القِدَم والرجعية ، وبين الجِدّة والتقدّم . ولقد جانبتُ ذلك الرباط ، لأنه رباط برغم العرف مقطوع . إنه رباطٌ غير مقدّس ، لا يباركه فكرٌ ولا هو يَقُوم عليه منطق .

إن الشيء القديم قد يَحْسُن ، ولا يستطيع فوات زمان أن يغيّر من حسنه . والشيء الحديث قد يَسُوء ولا تستطيع حداثته

أن تقلل من سوئه . وأكثر أصول الحياة ثابت ، لا يتغيّر مع الزمان . لُبُّ الحياة ثابتٌ على تتابع القرون ، وإنما الذى يتغيّر قشرُ الحياة ، ومظاهرها وأشكالها . فالحب فى صميمه ثابت ، والفضيلة فى صميمها ثابتة ، والحسن والقبيح فى جواهرهما ثابتان ثبوت الجبال ، وهما كالجبال لا يَطلبُ منهما أحدٌ أن يتغيرا بتغيّر الدهر فيتجدّدا . وقد تختلف الملابس ، فهذا فى قميص ، وهذا فى جبّة ، وهذا فى بذلة ، وعلى رأس هذا عصابة ، وعلى رأس هذا عمامة ، وعلى هذا قبعة ، ولكن لو عدَدْتَ أعضاءهم الظاهرة والخافية لوجدتها واحدة ، ولو فتّشت بواطنَ القلوب ونوازعها لوجدتها واحدة ، ولو بحثتَ فى خبايا أنفسهم عن مصادر الخير ومضابطه ، ومصادر الشر ومضابطه ، لوجدتها فى كُنهها واحدة .

والعمامة ، وهى شارة القدم ، قد يَمشى تحتها جسمٌ يتضمن قلباً تتأجج فيه نار الثورة على كل حاضر ، لا لأنه حاضر ، ولا لأنه قديم أو أنه جديد ، ولكن لأنه غير صالح ، وكان غيرَ صالح وسوف يكون . والقُبّعة ، وهى شارة الحداثة ، قد يمشى

تحتها جسم يتضمن قلباً أبرد ما يكون ، وأرضى بالحياة وبالحاضر ، على ما به من سوء .

* *

بقى أن فى الناس عادات ، فى مأكل أو مشرب أو ملبس أومسكن ، وعادات فى سلوك وآداب ، وعادات فى اللغة وأساليبها ، وعادات فى الفكر وأنماطه . وصاحب العادة به احتفاظ بها لأنه تعوّدها ، ولأنها عادة فهى بحكم الطبع تَعُود . تجد ذلك فى جبلّة الناس . وهى لم تُخْلق عبثاً . إن الأشياء دائماً فى تغيّر وتطور . والتطور قد يكون فاجئا فيؤذى ، كنازل جبلا ، يتعجّل نزولَه ، فيفقد السيطرةَ على رِجْليه فيهبطه تدهورا . وكان جديرا بقدميه ، أول الأمر ، أن يكون بهما أثقال تهدّئ من خطوها وتُقصّر . فهذه هى المحافَظة التى تكون فى بعض الناس . وهى فى الحياة تعمل عملها ، فكأنما هى قانون من قوانين الطبيعة . إن الحياة شدٌّ وجذب ، وبسطٌ وقبض ، وما أحبَّ عاقلٌ أن تكون الحياة شداً ولا جذبا ، أو بسطا ولا قبضا .

إنى أُغْرَم بالجدّة والتجدّد ، ولكنى ، بمعناها هذا الخاطئ ، الذى يودُّ به صاحب الجديد أن أفهم منه أنه الإصلاح دائماً ،

أجفلُ أشدَّ الإجفال من جماعة متجدِّدة ، تقضى فى أمر خطير ، لا يكون بينها رجلٌ مما يثقُل به الفكر إلى الوراء ، فلا تعتريهم عند البتّ فى أمثال هذه الأمور أناة .

**

ومن الناس من يريد أن يُفهمنى أن التجدّد فى التمرّد ، باحتقار رأى الأب ، واستخفاف بحنان الأم ، أو هو فى التحرّر بالرقص فى الصالات ، بين الكؤوس والقُبُلات ، أو بصور شتّى من هذه السخافات ، فهؤلاء ، لى على الله رجاء فيهم ، أن يَزيد أقفيتهم عرضا ، ويزيدها شحما ، حتى تمتلئْ كفٌّ بها عند الصفع ، ويكون لها رنينٌ يُسمَع فى الآفاق .

# بادلوهم ، إيماناً بإيمان

أنت جالس فى منزلك وبين كتبك ، وقد مضى أكثر الليل . أهلك يغطّون فى النوم ، وكل ما حولك من حجرات فى سواد ، وكذلك ماحول بيتك من بيوت ، وماحول شارعك من شوارع ، إلّا حجرة مكتبك هذه الواحدة ، فهى الوحيدة التى يَشِعّ منها الضياء شديداً فى الظلام ، وهى الوحيدة التى تجرى فيها الحركة فى هذا السكون السائد . وهى ليست بحركة أجسام ، بل حركة أفكار ، مصدرها هذا الرأس القليل الذى هو رأسك . ومع كثرة الحركة فى رأسك هذا القليل ، فهو ، كجسمك الذى هو بعضه ، قد اشترك ، من حيث أنه مادة وجسم ، فيما خيّم على المواد والأجسام التى حوله من سكوت وسكون . وإنك لتقرأ فى كتابك ، وتستمع إلى كاتبه وهو يحدثك ، ولكن بدون صوت . وقد

إن الشاب الذى زل فى الطريق ، ويتمرّغ بعد بوحل الأرض ، تنهض به يد مصافحة تمتد إليه رفيقة معينة .

تسأل ، وقد يجيب ، ولا يضطرب لسؤالك وجوابه من حوله شيء . حتى هواء الحجرة صامتٌ ساكن ، لا يحرّكه غيرُ أنفاسك الدافئةِ الهادئة المطمئنّة . على أنه لو كان تحرك من الحجرة هواؤها ، وما هو أثقلُ من هوائها ، ما أحسستَ بتحرّكه ، لأنك من فكرك في وادٍ سحيق ، أو جُبٍّ عميق .

وبغتةً ، وعلى الرغم من غيبوبتك البالغة ، ترفع عينيك فإذا رجلٌ أمامك ، قد حجب النورَ فرمى إليك بظلاله ، ولا هذا ما استيقظتَ مما أنت فيه . وتتأمّل الرجلَ ، وقد تحفّزتْ كلّ عضلة فيك لتهُمّ إليه ، فإذا بك ترى مسدّساً قد سُدِّد إلى قلبك ، ويُوشك أن ينطلق .

ماذا تقول ؟ ماذا تفعل ؟ هل تسأل الرجل ماذا يريد ؟ أهو سارق ؟ أهو قاتل ؟ أم هو سارق وقاتل معاً ؟ وهل يأمر فتطيع ؟ وهل يطلب فتُعطِي ؟ أم تقاوم ؟ أم تخاتل حتى تَسنح فرصةٌ للمقاومة ؟ أشياء كثيرةٌ تدور في خاطرك في تتابع غريب ، ولكن لا بد لها من جواب سريعٍ ، وحاسمٍ معا .

* *

والآن أدعك تفكّر فيما تصنع ، في موقف كهذا .

وأحكي لك ما صنع غيرك في مثل هذا الموقف ، مما وَعَتْ الذاكرة .

إنه رجلٌ نابهٌ من كُتّاب الغرب ، جمع إلى القلم الثراء ، قام ليلةً على مثل ما وصفنا ، ولكنه لم يكن يقرأ . بل كان ، في الهَزِيع الأخير من الليل ، يكتب . واستغرق في كتابته استغراقا . ودخل عليه اللصُّ شاهراً آلة الموت . ورفع الكاتب بصره إليه ثم غضّه ، واستمرّ يكتب وهو يصيح به ، اذهب عني : إني مشغول . عُدْ غدا .

ذُهِل اللصُّ ، وكأنه لم يَدْرِ ما يصنع ، فمضى .

ولم يعد غداً .

وموقفٌ آخرُ مما وَعَتْ الحافظة .

إنه موظفٌ كبير في وزارة الداخلية ، وزارة الشُّرطة ، يسكن الجيزة . وسَهِر ليلته في عمله ، في مكتبه . وخرج ، فساق في تلك الليلة سيارته بيده . وما اقترب من بيته حتى شاقَهُ سكونُ الليل ، وأعجبه البدرُ وقد توسّط السماء ، فنالته رغبةٌ طارئة كالتي تنال الكثيرين من رجال الأمن ، وتأتي كل مغامر ، أن يخرج عن عادته فلا يذهب إلى داره ، وإنما يخرج إلى طريق الهرم ، يستمتع بهذا الضياء الخافت الذي يتنزّل من السماء على الأرض ، شاملا في تلك الليلة كاملا ، فيكشف عن خضرة الأرض الفسيحة

ولا يكاد ، ويرمى بظلال الشجر سُودًا على البياض الأغبر الذى غمر الحقول .

وركن بسيارته إلى جانب الطريق ، وأخذ يتأمل المخروط الهرمىّ من بعيد ، وفى يده سيجارة يُعفِّر بها تفقير الخلىّ . وقد خلا قلبه وطابتْ نفسه ، وتهيأتْ لكل عملٍ للخير كريم .

وبغتةً ، وهو غارق فى حُلُمه الهادئ اللطيف ، تَدْخل إليه من نافذة سيارته المفتوحة فُوهَةُ سلاح قاتل ، ومن وراء السلاح شابٌّ يتهدّد .

فَزِعَ الرجل الطيّب ، لاشك فى هذا . وفكّر أولَ ما فكر فى أمر مِحْفظته . إنّ بها عشرة جنيهات أو نحوها . فلْيُسْلمها إذن لهذا الشاب ويَفتَدِ بها نفسه . ولكن من يدريه أنه جاء سارقا . لعله جاء قاتلا . وإذن لا بد من سؤاله . وسأل :

— قل لى ، ما الذى حدا بك أن تفعل هذا ؟

وبعد تردّد جاءه الجواب :

— أنا جوعان ، ولا عمل لى ، وأطلب العمل فلا أجده .

اطمأنّ رجل الأمن إلى الحافز ، إنه المال ، ولا شىء غير المال . فالأمر إذن هيّن ، وهدأتْ ضربات قلبه بعض الشىء .

ونظر إلى الشاب ، فوجد فى فمه بعضَ اختلاج ، إن هذا الشاب

لم يتعود الإجرام إنه فى الكار جديد. وأغراه هذا بوصل الحديث :

— هبْ أنى أجد لك عملا . أو هب أنك تبدأ عملا مستقلا أُعينك عليه ببعض مال ، فماذا أنت صانع ؟

فنظر الشاب إلى صاحبه أولَ الأمر فى ريبة . قال :

— أصادقٌ أنت فيما تقول ؟

— نعم وكلّ الصدق .

عندئذ طوى الشاب سلاحه ، وأخرج الموظف الكبير من محفظته بطاقته ، وجنيهين ، وأعطاهما للشاب ، وسأله أن يأتيه بعد يومين فى مقر عملِه فسيكون عنده له عمل حاضر .

وأوقد الشاب عود كبريت ليقرأ . وقرأ . فما علم أنه موظف فى وزارة الداخلية ، وزارة الأمن ، حتى عاد يتفحّصه من جديد ، ثم قال :

— فى الأمر خُدْعة !

— لا وشرفى .

وسكت الشاب ولم ينطق بكلمة .

ومضى الموظف بسيارته .

وفى الغد اتصل الموظف الكبير بصديق له ، مدير لإحدى الشركات . وقص عليه القصة . وطلب إليه أن يجد للشاب عملا .

فضحك الصديق . وقال إنه سيهيئ العمل ، وأنه سوف ينتظر مجيء العامل ، وأنه لن يجيء . وكيف يجيء مُعْتَدٍ بسلاحه ليلقى ضحيَّته من بعد خلاصها وخلاصه . كيف يجيء تلك الضحيَّة ، التي لقِيَها بالأمس شاةً منفردةً في طريق مهجور ، ليلقاها أسداً في عرينه ، بوزارة الداخلية . ولكن الموظف الكبير قال لصاحبه إنه يؤمن ، على الرغم من كل هذا ، أن الشاب سوف يأتيه .

وحلَّ الموعد ، فإذا السكرتير يخبر الموظَّفَ الفخْمَ ، بأن شاباً ، لا يبوح باسمه ، يريد لقاءه . وأَذِن له .

ولم يمض أسبوع حتى كان الشاب يعمل في الشركة .

وعجب مدير الشركة للذى حدث . وحفزه فُضُوله وحذرُه إلى متابعة الشاب ، بحسبانه شيئاً خطيراً ، لا يوثق به هكذا سريعاً .

* *

حدث هذا منذ سنوات عشر . واليوم تزور الشركة ، فترى الشاب قد خطا في الترقية خطوات سريعة متتابعة .

فما الذى غيّر مجرى حياته هذا التغيير ؟ كانت الأيام تجرى به إلى السجن أو المِشنقة ، فإذا بها تجرى به إلى عيشة راضية مستقرة ، فيها العمل ، وفيها الأمل ، وفيها الحياة كما يجب أن تكون الحياة .

غيّر من مجرى حياته إيمان الرجل بالرجل .

نظر الموظف الكبير ، موظف الداخلية ، إلى الشاب ، ومظهره مظهر المجرم ، فحباه على غير انتظار ثقةً يحْبُوها الرجلَ الشريف . فبادله الشابّ ثقةً بثقة ، ولم تكن الجريمة ذهبتْ بعدُ بكل ثقته بالناس .

إن الشاب الذى زلّ فى الطريق ، ولم يتمرّغْ بعدُ بطين الأرض ، تنهض به وبرأسه إلى حيث يرفع الناس رءوسهم فوق سطح الأرض ، يدٌ مصافِحَةٌ تمتد إليه رفيقةً مُعينة .

إنه ليس كالإيمان يُسْديه العقلاء الرحماء لشاب فقد الإيمان بنفسه . فبادلُوا شبابكم إيماناً بإيمان ، يَهْتدِ الضالُّ ويَرْعَوِ الغاوى ، ويسُدْ السلامُ ، وتنتشر الطمأنينة ، وتصلح الأحوال .

# تحرك الزمن . . .
# . . . فتحركت همومه

عرفت رجلا توالت عليه النوائب ، كأنما تتخيّره الأيام بمصائبها . وكان جزِعاً شديدَ الجزع . يمرض ابنه بالتيفود فيتصور النعش ، ويرى الجنازة ، ويتصوّر المنزل وقد خلا من ابنه . وتقوم بينه وبين زوجته خصومة لاتلبث بتدخل الأهل والأقارب أن تشتعل فتكاد أن تأتى على البيت ومن فيه ، فما أسرع ما يتصور الطلاق ، ويتصور أنه خرج من عمله فلم يعد إلى بيته الخَرِب ، وإنما ذهب إلى أحد المطاعم يطلب غذاء الحياة . ويحاول أن يَزيد فى ثروته القليلة الضئيلة فيشترى بها سندات ، وتقوم الحرب فتهبط قيمتها إلى الثلثين فما دونهما ، فيتخيل الفقر المُدقِع وقد نزل به فى حياته ، واستقلّ بذرّيته من بعد مماته ، فيبيت الليالى يبكى بغير دموع ، وشرُّ البكاء الذى لا يَدْمَع .

> ليس أكبر الهمّ داءُ ا همُّ المال ، وليست كبرى البلايا دائما بلية الموت . ومن الهمّ ما شفاؤه الفقر ، ومن البلايا ما شفاؤه الموت .

وأصيب فى عمله ، وأُخرج منه بتهمة ملفّقة مكذوبة ، فتخيّل أنه لم يبق له بالحياة حاجة ، وكيف تكون لأحد حاجة بالحياة وقد ذهب رزقه وجاءته الفضيحة . والأعمال تُطلَب فيشُقّ مطلبها على الشرفاء ، فكيف بالمفضوحين المجرّحين . وحاول أن ينتحر فأخفقت محاولته ، فظن أن القضاء لا يريد له حتى المخْلَص من شقاء .

ومضت عليه سنوات عشر وعشر وعشر ، فإذا الرجل لايزال حياً ، ولايزال عاملا . وأولاده نشأوا وترعرعوا ووجدوا من العمل خيراً مما وجد أبوهم . والبنات تزوج أكثرهن خير زواج . والأسرة صارت لها «خميرة» ليست بالكبيرة ، ولكنها على كل حال تكفل للرجل ولزوجه — حتى إذا اعتزل — عيشاً طرياً رخيّا . كل الهموم ذهبت ، وكل المخاوف انقشعت ، ولم يبق منها إلا آثارها فى وجه الرجل ، تجاعِيدُ عميقةٌ ، وإلا فى رأسه ، بياضٌ شاملٌ . كان كالقصّة التى مُسِحَتْ سطورها ، أو مُزِّقت صَفحاتها ، فلم يبق منها إلا الجلدة ، تقرأ عليها عنوانها الفاجع : تقرأه فى هذا الوجه المتجلد ، أو فى الرأس الذى عمّه الشيبُ قبل أوان .

**

ورجلا آخر عرفت . . . جاءه من المصائب مثلُ ما جاء صاحبَهُ ، وخيرٌ مما جاء صاحبه ، بل شرٌ منه ، ولكنه كان من ذوى الخيال البليد أو المتبلد . فأخذ يَحْسُو كأسَ الزمان المرَّة حَسوةً من بعد حسوة ، وهو يرجو كل مرة أن تحلو ، ولكنها لا تحلو . حتى إذا قارب النهاية ، وجد الحلاوة فى لسانه . وجد السكر فى قاع الكأس المُرَّة ، كما يجد شارب القهوة حلاوتها فى آخر الفنجان الذى نسى أن يقلّبه . فكانت حلاوة ممتازة لا تشابهها الحلاوات ، لأنها جاءت من بعد مرارة ، وجاءت مركَّزة . وتنظر فى حال هذا الرجل ، وتَقْرنها بحال صاحبه ، فلا تجد فرقاً كبيراً فى النتيجة ، إلا فروقاً بين الوجهين ، وفروقاً بين الرأسين . . فروقاً بين العنوانين . ففى عنوان ذاك ، ذى الوجه الكثير الغضون ، تقرأ الأسى والألم سطوراً. أما فى عنوان هذا ذى الوجه ذى البشرة التى لا تزال ناعمة ، فإنك لا تقرأ شيئا .

إن الفرق بين الرجلين فرق مزاج ، ولكنه فرق ما بين الظلمة والنور ، أو هو فرق ما بين الشقاء والسعادة ، أو بتعبير أدق ، هو فرق ما بين الشقاء وانعدامه . والعدم خير من الوجود الذى يكون شقاءً ويكون ألماً . وانعدام الشقاء أول خطوات السعادة ، وانعدام الألم أول السبيل إلى اللذة .

أو أن الفرق بين الرجلين فرق فى النظرة إلى الزمان . نَظَرَ الأول إلى زمانه وما يأتيه ، فحسِبَ الزمان جامداً ، وحسب الذى يأتيه به الزمان باقياً مخلّدا . أما الرجل الآخر فنظر إلى الزمان فوجد أن أيامه ولياليه تتعاقب ، ووجد فصوله تتوالى ، وتتوالى السنون والقرون . ووجد حظوظ النبات ، قصيرِ العمر ، تتغير وتتبدل . وكذلك وجد حظوظ الحيوان . فعرف أن حظه لابد أن يكون كحظ هؤلاء وهؤلاء . فكلما جاءته مصيبة تربّص بها الزمنَ أن يرفعها ، وإذا بقيت فيه منها جروح تريّث بالزمن أن يَلْأَمها . فعاش فى سواد الليل على أمل الصباح المرتجَى . وكان من شِيَم هذا الرجل النادرة ، أنه إذا جاء نهاره توقّع أن يأتى من بعده ليل ، فلم يفرح بنعمة تأتيه فرحاً بالغا ، لعلمه أن النعم إلى زوال . إنه رأى الزمن رؤيته الحقة الصادقة . رآه متحركا لا جامداً ، يأتى بصور من بعد صور ، كما تتغير الصور بالحركة على الشاشة البيضاء .

**

حكمةٌ بالغة تلك التى علّمها إياى هذا الشيخ فى زمانه . . . أنى على الجوع لابد أن أذكر الشبع ، وعلى الشبع لابد أن أذكر الجوع ، وفى الخيبة لا بد أن أذكر النجاح ، وعند النجاح لا بد أن أذكر الخيبة . وفى كَدَرِ الصداقة لا بد أن أذكر صفوها ،

وعندما تصفو الصداقة يجب ألا أنسى كدرها .

**

ودخلت المستشفى أطلب جراحة . فلما تمت جاءنى الألم منها ليالى متوالية ، كانوا يخففونه فى أولياتها بحُقَن « المرفين » . فلما جاءت الليلة الثالثة أبوْا علىّ « مرفينها » أن يُعطوه ، حشية أن تتولّد عندى منه عادة . وبقِيتُ على الألم والظلام والوحدة ، وضيقٍ يضيق عنه الجلد وتضيق الأنفاس . وبغتةً يتمثل لى وجه هذا الشيخ الضاحك ، وتتمثل حكمته : أن الزمان دائم التحرك .. وعندها أخذتُ أقول لنفسى إنها الساعات تجرى ، فلا بد أن أعطيها الفسحة لتجرى . وأخذت أنظر لليل كما أنظر لساعة الرمل ، وزاد خيالى حدّةً فرأيت الرمل يهبط حقًّا من خرقه ، وترقبتُ آخر حباته أن تهبط . وخفَّفتْ هذه النظرة آلامى ، وذهبتْ بأكثر ضيقى . ومضت الساعات أسرع ، ومضت الأيام أوحَى وجاء اليوم الخامس فالسادس فإذا بى على الراحة ، وعلى الوثارة ، تأتينى الممرّضة بالطعام أشتهيه ، ونفسى كالصفحة البيضاء تنعَم بفراغها على ذاك السرير فى الحجرة الفارغة الهادئة .

إن الزمان يتحرك ، ولكنها حركة خافيةٌ كحركة هذه الأرض التى نعيش على قشرتها ، ناعمةٌ كحركتها ، وبتحرك

الزمان يأتى الظلام ويمضى ، وكذلك تفعل الآلام .

ومما يزيد ذا الضيق ضيقا ، أن يحسَب أنه وَحْدَه فى ضيقه ؛ ومما يزيد ذا البليّة ألماً ، أن يحسب أنه وحده فى بليته . وهو لو كشف الحُجُب ، ورفع الأسقف عن منازلها ليرى ما فيها ، أو لو أُعطِيَ جسمه شفافةَ الأرواح فنفذ إليها من الجدران اختراقاً ، أو من الأبواب وهى مغلقة ، لعرف أن فى كل بيت بليّة ، وأن لكل صاحب بيت همّاً ، ولكل صاحبة . وليس أكبرَ الهمّ دائماً همُّ المال ، وليست كبرى البلايا دائماً بليّةُ الموت . ومن الهمّ ما شفاؤه الفقر ، ومن البلايا ما شفاؤه الموت . إن الله أعطى الإنسان اللسان يكشف به عن نفسه ، ولكنه أعطاه كذلك الصمت يستتر به على نفسه ، ولو تحدث الناس بالذى فى طواياهم ، وصَدَقوا ، لعرفوا أن حظوظ هذه الدنيا من خوف أكثرُ من حظوظها من اطمئنان ، وقِسمتها مما يسوء أكثر من قِسمتها مما يسرّ ، ولو أن الناس نطقوا ، وأفصحوا ، عن نية خالصة ، لهان الهمّ بالشِّرْكة فيه ، أو لهان بالتعاون عليه واستئصال أسبابه .

**

إن أبا المولود يفرح بولده ، ولا يكاد يخطر له فى بال أنه فى تلك الساعة التى نزل فيها وليده ، نزل من ولائد الدنيا ألوفٌ

وألوف ، وفرح من الآباء ، أو لم يفرح ، ألوف وألوف . والإنسان يفقد أمّه أو أباه ، أو يفقد ولده ، ولا يكاد يخطر له فى بال أنه فى تلك الساعة ذهب عن الدنيا ألوف من آباء وأمهات وأولاد ، جمع بين أحداثهم الواحدةِ ، الزمنُ الواحد ، وفرّق بينها المكان . ولو توحّدَ المكان ، لهان من الأمر ما هان . لهذا كان موت الميدان ، فى الحروب ، أخفّ من موت الفراش فى الأسرّة ، هؤلاء يموتون جماعةً ، وهؤلاء فُرَادى . ومن الأحداث ما يجمع بينها المكان الواحد ، ويختلف الزمان . ومن ذلك ذهاب الجد والأب والولد من بيت الأسرة الواحد ، يمضون على أحقاب متفرقة ، فيزيد فى ألم الشتّات اختلافُ الزمان ، لارتباطٍ بحاضر ، وتعلّقٍ بماض ، وتربّصٍ بمستقبل .

وبين ساعة الميلاد وساعة الموت ، تجرى صروف الدهر بما يشبه حلاوة الميلاد وما يشبه مرارة الموت ، وإنى لأعجب لرجل ، هذا بَدْؤه وهذا انتهاؤه ، أن يفرح فرحاً زائداً بشىء ، أو يأسى أسى بالغاً لشىء .

إن حياة الناس كأنهر الأرض ، لها منبع ولها مصب . ومن البحار تعود فتنشأ الأنهار : ومن الأنهار القصير السريع ، لأنه يهبط من جبل : ومن الأنهار الطويل المتهادى لأنه يجرى فى

انبساط . ومن الأنهار المستقيم ومنها المتموّج حتى لتحسَبُه عائداً من حيث أتى . ومن الأنهار ما يضيق مجراها حتى لتحسب أنها تنضِبُ وتجفّ ، فإذا بلغتْ مداها اتسعت ، فلا تكاد تؤالف بين هذه السعة وذاك الضيق . ومن الأنهار ماتعترضه الشلالات . ومنها ما يدور حول جُزُر . ولكنها كلها تنتهى دائماً إلى المحيط الأعظم ، فتُنسَى ، ويُنسَى معها وجودها ، وكلّ ما كانت قد لقيت فى مجراها .

وكذلك الناس ، يلقون ما يَلْقَوْن بين شروق الحياة وغروبها ، وعند الغروب يستوى العظيم والضئيل ، والكثير والقليل ، وذو اللون الزاهى ، وذو اللون المعتم ، لأن الألوان تتوحّد بدخول الظلام :

**

هل خَطَطْتَ يوما بأصبعك فى الماء ؟ إن الماء ينضم من وراء إصبعك ، إذ هو ينشق من أمامه : وترفع إصبعك عن الماء ، فكأنك ما خططت . . فهكذا الحياة :

إن حياة كهذه لا تحتمل الإسرافَ فى شىء مما يُسرف فيه الناس . لا تحتمل الإسراف فى أمل أو طمع : ولا تحتمل الإسراف فى كراهة أو غضب : ولا تحتمل الإسراف فى مَلَقٍ أو حب

وإذا اعتدل الإنسان فى كل هذه ، خفّتْ آلامه ، وقلّ توجّعه ،

إن الإحساس بالزمن الجارى ، يذهب عن الناس بشىء كثير من فواجعهم ، ويذهب كذلك ببعض مفارحهم . وهو فى الحالين كسبٌ ، لأن مبناه الحقيقة ، لا الشعر والخيال .

على أنك إذا فضّلت الشعر والخيال ، فامزجْ الضحك بالدموع ، واجمع بين طرفى الحياة ، اللذةِ والألم . والنتيجة آخر الأمر واحدة .

# حشاشون ... بلا حشيش

الحشيش ، أىُّ شىءٍ هو ؟ وأىُّ فعلٍ له بالرأس ؟ وأىُّ أثر له فى النفس ؟

واختلف الإخوان المجتمعون، فمن قائلٍ إن النفس به تمُوع . ومن قائل إن الوعْىَ به يَروح ، ومن قائل إنه لا شىء إلا الصداع . ولم يقل أحد من الحاضرين عن خِبرة . قالوا ما قالوا عن سماع .

قال قائل منهم : إذا اختلفت الآراء فالحكم للتجربة

قلنا أين ؟

قال : . . .

وبعد قليل كنا عند شاطىء النيل، جنوبَ قصرِه المنيف .

كان هذا منذ ثلاثين عاما . وكان القوم من الشباب المختار، ممن توسَّمَ فيهم المتوسِّمُ عند ذاك خيرا ، حققته لا شك الأيام . وأنت لو بحثتَ عنهم اليوم ، لوجدتَ أسماء الكثير منهم على ألسنة الناس ، ومِلْءَ أسماعهم .

وركبنا القارب. وخرجنا

> إن أثمن ما فى الرجل منا الفكر ، ومن أثمن ما فى الفكر الخيال ، ولكن غير ذلك الخيال الذى ففيره حشيشة الليل ، أو حشيشة النهار .

به فى طلب العلم الذى أُمِرْنا أن نطلبه من المهد إلى اللحد ، وفوق اليابسة وفوق الماء . وبعد نصف ساعة ، والقاربُ يشقّ الماء ، هدأ سيره بغتة . وصفر الصافر . فكان جوابُ ذلك قاربا خرج من الظلمة من حيث لا ندرى ، فقد كنّا فى غَبَش المساء ، وقد ثَقُلتْ الظلال وامتنع النظر .

وانتقل رجل من هذا القارب إلى قاربنا ، على الصمْت ، حتى السلامُ لم يؤدِّه . كان الرجل رجلَ أعمال لا رجل أقوال . ومضى علينا بالجوزة ، وهى معمورة ، فى نظام مرسوم ، وأخذنا نتهيّأ للدخول فى عالَمٍ مجهول . ونحن نضحك ، ويسائل بعضنا بعضا أين بلغ . ولمّا لم نكن بلغْنا شيئا ، عاد الرجل بجوزة ثانية ، وبها علينا دار . وعُدْنا نتساءل أين بلغْنا ، فلم يأتنا أحدٌ بقولٍ فصْل . وبينا الرجل يَهُمّ بالتعميرة الثالثة ، صاح صائح منا ، وكان معروفاً بدينه : أنا لا أستطيع أن أبقى على هذه الريبة ، ولو فى سبيل العلم ، فوقَ هذا القدر من الزمان . ولما كانت الريبة لا تأذن لأحد أن ينفصل عن الجماعة ، إلا إذا انفرط عِقْدُها ، فقد عُدْنا أدراجنا .

**

وفسّر بعضنا هذه الخيبة فيما قصدنا إليه بأننا لم نُحس الأنفاس شدّا . قال آخر : بل المِزاج لم يتهيّأ ، وأكثرُكم بالذى

كنتم فيه كافرون . قال ثالث : بل إن الغش دخل كلَّ شيء ، فهذا لا شك حشيش فاسدٌ عتيق .

وأسفنا لفوات الفرصة التى لم تعد قط .

* *

ووقع فى يدى الحشيش بعد ذلك ، بسنوات عدة ، مقاديرَ هائلة ، يملأ المقدار منها اليدين ويفيض ، ولكنه كان لاختباره فى المعمل فى أنابيب الزجاج ، لا أنابيب الجوز والقاب ، ولم أعرف منه إلا رائحة له لذيذة ، جعلتنى أتعرَّفه بها وهو يهُبّ نسائمَ قليلةً مع الريح .

وعدتُ أفتّش عن أثره فى الكتب . فإذا برجل منذ قرون يصف ما وجد منه فيقول : إن الحشيش يملأ العقل بخيالات لذيذةٍ تتتابع فى حَفْلٍ عظيم .

ولقيت متَّهماً بالحشيش ، فسألته كيف وجده . فابتسم على الرغم مما به من سُوء ، وشعشع ، ونظر إلى السماء وقد تهلّل وجهه ؛ ولقد أغنانى ذلك عن أن ينطق ؛ ولكنى ألححْتُ فقال : هل لك آمال فى الحياة ؟ قلت : نعم . قال : وهل بنيتَ قصوراً فى العلالى ؟ قلت : قد أكون . قال فهذه الآمال تتحقق لك بغير جهد ، وهذه القصور تُبنَى لك فى العلالى وأنت قاعد . ثم تصعد

فيها طبقة من بعد طبقة ، تستمتع بر ياشها و نعيمها ، من مذكور وغير مذكور ، بدون سُلَّم ، حتى ولا مِصعدٍ تصعد به ؟

ومضيت عن الرجل ، وقد تعلق بأذنى من قوله : إن هذه القصور تُبنَى لك فى العلالى وأنت قاعد .

وأدرت فكرى فيمن أعرف من الرجال ، فوجدت كثيرين يبنون القصور وهم قاعدون ، فقلت لنفسى : إن الدنيا مليئةٌ بالحشاشين ولا أدرى . حشاشون بغير حشيش .

* *

أعرف رجلا ذكيًّا قادراً ، فى خاطره التوقّد ، وفى خياله الحركة . ولكنها حركة تجمعتْ كلها فى رأسه ، فلم يَفِضْ منها ليديه ورجليه شيء . فهو قاعدٌ ورأسه يدور . وهو قابعٌ حيث هو، وفكره سيّاح جوّال عمّه الكسلُ إلا فى الذِرْوة من كيانه . يُريد الغنى ، فيصوّر لنفسه ألفَ سبيل إليه ، لا يسلك منها سبيلا . ثم يتصور أنه نال الغنى ، قصوراً وحدائق . ويُصمّم القصور ، ويخطّط الحدائق . ثم يقعد فى شُرفة القصر يستمتع بنسْمة تأتى فى الصيف . وهو يَجُول فى حدائقه ، يَقطُفُ ما ينَع فيها من الزهر . ويدخل إلى حجرة المائدة فيجد فيها من الثمر ، ومن كل طعم ، زوجين . إنه يحلُم وهو يقظان . وتوقظه من حُلُمه

فتختفى كلّ هذه الصُوَر الجميلة ، ويسقط منبطِحاً من سمائه على الأرض البسيطة ، فلاقصورَ إلا البيتَ العتيق ، ولاطعامَ إلا طعاما غيرَ أنيق ، ولا حديقةَ ولا نسمةَ إلا الصَهْد يتصاعد من زِفت الطريق .

وآخرُ طلبَ الأدب ، وطلب الكتابة والخطابة ، وطلب عن طريقها الزعامة . والأدبُ والكتابةُ لا يكُونان إلا عن درس ، وعن جهد جهيد ، وعن ليالٍ ساهرة ، وعن أصباح وأمساء بالعمل زاخرة ، وعن خيبة تتلوها خيبة ، يتخلّلهما بريقٌ من أمل . وأراد أن يَدخل البيتَ من بابه ، فعجز . ولقد حاول فما صبر . وبقى الأمل حيّا فى قلبه . رأيتُهُ قام يحقّقه مرة وهو يقظان يحلم ، يخطب من غير صوت ، ويُشيح بيمناه ويسراه . وأخيراً صفّق الناس فأحنى رأسه شكراً ، ذات اليمين وذات الشمال .

وليس كل الناس تظهر عليه من أحلامه أعراض .

فمن الناس من يجلس إليك ، وتحسَبُهُ هادئاً ساكنا ، وفى فكره تقوم الدنيا وتقعد ، شريطٌ للحوادث يمرّ أمام عينيه ، طويلٌ عريض . هو بطله . وهو من صنع نفسه . وتحدّثه وهو عنك غافل ساهٍ . وتناديه فيصل إليه الصوتُ كما يصل إلى النائم .

ويقطع حلمهُ وهو آسف ، كما يأسف النائم للصحو من حلم لذيذ ، مطيّتهُ السحاب .

* *

إن أثمن ما فى الرجل منّا الفكر ، ومن أثمن ما فى الفكر الخيال . والخيال جُعِلَ ليجمع به المرء من الأشياء أجزاءها ، ومن الحوادث أطرافها ، وليصوِّر به لنفسه كيف تَصلح الأمور . وهو خيال يتصل بالواقع ، ويتصل بالمنطق ، ويعتمد على المُمكِنات . وهو أداة المخترع حين يخترع ، والعالم حين يبتدع ، والشاعر حين يَقْصِد القصيد ، والفيلسوف حين يُفتّق الأمور .

ولكنْ غيرُ ذلك الخيال الذى تُثيره حشيشةُ الليل . وغيرُ ذلك الخيالُ الذى تثيره حشيشةُ النهار .

# الأكل فن وفلسفة

أذكر أني في السنوات الأولى من إقامتي بإنجلترا، كنت أنزل في أسرة ليست بذات ضيق، وليست بذات سَعَةٍ وثراء. وهبط علينا ذاتَ يوم رهطٌ من الممثلين والممثلات، على رأسهم الممثل الشهير، السير فرنك بنسن. جاءوا من لندن إلى هذا البلد الكبير يُحْيون لياليه. وجاء وقت العشاء، فوجدنا أكثر القادمين قد خرجوا إلى المدينة يرُودونها.

ولكن بقيتْ منهم في الدار بقيةٌ اجتمعتْ معنا على المائدة. وكانوا ثلاث بنات ورجلا. وقد ازّينتْ البنات زينةً رائعة فوق ما زانتهم الطبيعة به من جمال.

> لا تشمّوا الطعام كما تشمه البهائم من اشتهى شيئاً فليأكل، ومن كره فليدعْ

ولم يكن في الزينة غلو، ولكن كان بها كمال. والوجوه تراءت كوجوه من نور.

والعيون برقتْ من بين ظلال الرموش. والحواجب تزجّجت في حدود الطبيعة. والخدود تورّدتْ في اعتدال فما تكاد تُدرك أكان هذا عن طِلاء

مصنوع أو هو لون مطبوع . والشِّفاه احمرّت حتى كادت تَدمَى . وافترّت الشفاه فى الحديث فكان كزقزقة العصافير رقة . وتراءت الأسنان الصغيرة فكانت كأنها العاج كساه ذَوْبُ اللؤلؤ لو أن للؤلؤ ذوبا .

**

وجاء الطعامُ ، فخشِيتُ على هـذا النظام البديع من الجمال والكمال أن ينفرط بالطعام عِقْده . وخُيِّل إلىّ ، وأنا الشاب ، أن هـذا الحسنَ المفرِطَ لم يُخلق ليأ كل ، وأن عيشه وجب أن يكون على الماء والهواء والضياء . ولكن ما لبثتْ خشيتى أن زالت ، فقد لبِثتُ على المائدة ساعة أنعُمُ فيها بفن للطعام لم أعهده على هذه المهارة قط . فنٌّ سما فناهض هذا الحسنَ براعةَ صنعة : لم تتّسخ فيه أُنملة ، ولا تبللت شفة ، ولا سُمِع للأضراس الطاحنة طحن . وسواء صَلُبَ الطعام أو سال ، فقد مَرّ من مساربه فى سهولة ورفق ، كالماء يسيل منحدراً فى نعومة وملاسة .

لم تكبر اللقمة قط عن بعض ما يتسع له الفم ، وهى تتحوّر وتتدوّر حتى تأخذ شكلا هندسياً مناسباً قبل بلوغها مدخل الطعام . ولا يكاد يحسّ الناس أنه بُذِل فى تدويرها وتكويرها جهد . وهى إذ تبلغ مدخل الطعام لا يكاد ينفتح الفم لها إلا بمقدار

ما ينفتح عند الكلام . وهى تختفى فيه فلا تراها من بعد ذلك أبدا . ويلوكها الفم ، ويلوكها ، ولا تكاد ترى لدورانها فيه حركة . ويفرغ منها ، فتنظر ، فما تحسب أنه أَكَلَ أو هو آكل . كان أكلا كما يلتقط الكَنَارُ حَبَّه .

ولم تتوقف هذه الحسان الثلاث أثناء ذلك عن حديث ، وما توقفتْ عن رد الخطاب . لأن مجرى الكلام ، وهو مجرى الطعام ، لم يزدحم قط . وأسلوب الأخذ ، وأسلوب الإعطاء ، وأسلوب الرفع وأسلوب الخفض ، وأسلوب الدفع وأسلوب الجذب ، كل هذا كان فنا على المائدة رفيعاً ، تعلمْنه لا شكّ فى الكواليس ، فيما تعلمن من فنون ، وكن مثقفات ، فأحْسنّ تعلّما ، وبلغْنَ به مبلغ أرستقراطية ناضجة ، موطنها البيوتاتُ العتيقةُ الرفيعة ، فجئْنَ يَعْرِضْنه غيرَ عامدات ، فى حيث أدّى بهن المَطاف ، فى بيتٍ لا هو بالعتيق ولا الرفيع ، ولكنه بيتٌ نزلتُ فيه .

* *

ورُفِعتْ المائدة ، وانفضّ الآكلون . وخرجتُ من الدار . ثم عدت فى الليل متأخراً . ودخلت حجرة الطعام فوجدت شيخ الممثلين وحدَه ، يأكل . وكان طعامه خبزاً أخذ يَفُتُّه فى اللبن ، ولم يكنْ الفتّ عندهم بأسلوب للأكل مستساغ . فقال لما رآنى :

لا تُبالِ يا بنيّ بالذى يصنع شيخٌ فَقَدَ أسنانه . فقلتُ على الفور : هنيئاً مريئاً يا سيدى ، فإنما أردت أن أقول طاب ليلك . وعدت أدراجي لأترك له خلوته .

* *

وأخذت عندئذ أفكر ، فأحسب أنّ الأساليب شىء عظيم ، وأن أطرزة التقاليد لم تكن عبثاً ، وأنها دائماً أبداً ترمى لمعنى ، وأن هذا المعنى قد يكون صريحاً أولَ الأمر ، ثم هو ينبهم من بعد ذلك ، فيقوم التقليد وحده من بعد ذلك ، فيظنه الناس عبثاً ، وما هو بالعبث . إنه لفظٌ فقد معناه ، أو انبهم معناه ، ولكن يبقى له جرسه المسموع المألوف الحبيب .

وأدب الأكل تقليدٌ لم يفقد بعد معناه ، وفنٌّ لم تضع أصوله ولم يضع بعد مغزاه . وقد انبنى فن الأكل على كراهة التشبّه بالحيوان . على هذا يبنيه الأحدثون ، وعلى هذا بناه الأقدمون .

قال محمد : لا تشمُّوا الطعام كما تشمُّه البهائم ، من اشتهى شيئاً فليأ كلْ ، ومن كره فليدعْ . وقال بعض الحكماء لولده : يا بنىّ ، عوّد نفسك الأَثَرة ، ومجاهدةَ الشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تَخضِمْ خضم الحمير ، فإن الله جعلك إنسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة .

وانبنى فن الأكل ، فيما انبنى ، على حسبان أن الأكل غاية الحياة الأولى . وما هو غير ذلك . ولا يَهُولنَّ أحداً ذلك . فهذه الملايين تطلب الأرزاق ، فتحفى الأقدام ، وتُنهك السواعد ، فى أى شىء ؟ فى طلب الطعام . وهى إذ تحظى به ، لا بد أن تحتفِيَ به وتحتفل ، كما يحتفل الصائد بصيده . فالمائدة وجبتْ أن تكون احتفاء واحتفالا .

والاحتفاء لا يكون على قذارة . فأول شىء يكون التنظّف والتطهّر ، ولبس الجميل من الثياب . وقد جعل الإفرنج للمائدة ثيابا خاصة ، وما ذلك ببِدع . فكذلك فعل العرب قديما لما كان لهم عز الدنيا . فعلى المائدة يجب أن لا تقع العين على غير الجميل . ويحسن بالنساء ، مع لبس الجميل ، أن يتطيبْنَ ، ليُذعْنَ فى الحجرة بعض روائح الجنة . فكل هذا يفتح الشهية ، فى غير نهم ، ويكون الطعام عليه ، للجسم ، على القلة ، أكثر فائدة وأكبر عائدة .

ثم الحديث . ولن تجد حديثاً أحوجَ ما يكون إلى البراعة ، وإلى الفن ، كالحديث على مائدة . ولن تجد أفضح للرجال ، ولا أكشف عن حسن أذواقهم ، أو عن قبحها ، كمائدة . وقد يخطئ بعض الناس فيحسَب حديثَ المائدة فرصةً لإظهار علم ، أو إيضاح فلسفة ، فلا يلبث أن يجنى جزاء هذا عاجلا ، لا سيما

من عند امرأة ليس وقت بناء الأبدان ، وقت إشغال العقول وإتعابها ، وإنما هو السير الرهْو فى غير عَنَتٍ ولا إجهاد ، فقد كفى الآكلين بالذى حدث فى يومهم جهداً وإعناتا .

وأحب فنون الحديث على الطعام أخفُّها على السمع ، وأنشطها للقلب . والفكاهة لها المكان المعلَّى . وحديث الأحزان ممقوت ، وكذلك حديث العواطف الشديدة ، فإنها لا تأتلف والهضم ، فالهضم يتطلب الاسترخاء .

* *

وليس من فن المائدة الجميل أن ينظر المرء إلى ما يأكل رفيقه فى الطعام ، ولا إلى كيف يأكل . حكوا أن معاوية أجلس على مائدته أعرابياً يؤاكله ، فأبصر فى لقمته شعرة ، فقال : خذْ الشعرة من لقمتك . فقال له الأعرابىّ : وإنك لتراعينى مراعاة من يُبصر الشعرةَ فى لقمتى ! والله لا أكلت معك أبداً . وخرج منه وهو يقول :

ولَلْمَوْتُ خيرٌ من زيارة باخل يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

ومن فن المائدة أن لها مجالس يرتَّب عليها الآكلون ، ولها أسلوب يتوزَّع به الطعام . ولا تحسبنّ هذا بدعة قد ابتدعها المتأخرون ، وإنما هى لحكمة استنّها المتقدمون .

قال أنس : قَدِم النبيُّ المدينة وأنا ابن عشرة ، ودخل دارنا فحلبنا له شاةً فشرب ، وأبو بكر عن يساره ، وأعرابيّ عن يمينه ، فقال عمر بن الخطاب : أَعْطِ أبا بكر . فقال النبي : الأيمن فالأيمن .

وقال عمرو بن كلثوم فى معلّقته :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عمرو وكان الكأسُ مجراها اليمينا

وما شرّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تُصبحينا

* *

أما بعد فهذه أساليب الأكل وأطرزة الموائد ، ألممنا منها بطرف ، وتركنا أطرافاً . وهى كلها فن وذوق ولباقة . أما الطعام نفسه — مادته وطبخه — فهو فن كذلك . ولكنه فن يتضمن علماً ، ويتضمن فلسفة ، يتعاون على تحقيقه رجلان ، طبّاخ وعالم .

# النسبة والتناسب

في المدارس تعلمنا معنى النسبة . فالمليم تنسبه إلى القرش فتكون النسبة واحداً إلى عشرة . والقرش تنسبه إلى الريال فتكون النسبة ١ إلى ٢٠ والريال تنسبه إلى الجنيه فتكون النسبة ١ إلى ٥ وهلم جرا . وكذلك التناسب. فنسبة ١ إلى ٣ كنسبة ٢ إلى ٦ ، وكنسبة ٣ إلى ٩ . ما في هذا شك .

لا يخطىء أحد في النسبة أو التناسب . فلا يقول أحد إن نسبة ١ إلى ٣ كنسبة ٢ إلى ٣ أو ٣ إلى ٣ . لا يخطئ أحد في الحساب ، وأرقام الحساب .

> شرارة صغيرة أحدثت ناراً ، أكلت أعماراً ، وختمت آمالا ، كان من حقها أن تطول ، وكان من حقها أن تأمل ، وكل ذلك بسبب حس بالنسب ضائع .

ولكنْ للحياة حسابٌ غيرُ هذا الحساب، وأرقام غير هذه الأرقام، وأكثر الناس في هذا الحساب وفي أرقامه ، في نسبة الحياة وتناسبها ، يغلَطون ويخلِطون ويخبِطون .

إن رجلا يلبس على رأسه قبعة ، ويلبس على بدنه جبّة

خضراء ، تحتها مركوبُ أحمر ، رجلٌ ليس فيه تناسب . إن أعلاه ينكر أسفله ، وأسفله يصرخ فى أعلاه ، لقيام هذه النسبة الجائرة المتنافرة .

وامرأة تراها فى الطريق ، تحمل على ذراعها شيئاً تحسبه طفلا . وتنظر فى هذا الطفل ، فتجد أنه رجلٌ مكتمل ، له شاربٌ وله لحية ، وفى يده عودٌ فى أعلاه قرصٌ من حلوَى ، وهو يَلعق القرص بلسانه ، منظرٌ غير مؤتلف ، لا يستقيم ما تقع عليه العين منه أولا ، مع ما تقع عليه العين آخراً . الخطأ فيه خطأ فى النسبة والتناسب .

وبيت مررت به ، فى شارع فاروق ، طوله متر وعرضه فتر ، وارتفاعه ما لا تبلغ العين . لو نظرتَهُ من علٍ لحسبته نصل السكين وهو قائم وسألتُ ، فقيل أرضٌ أكل الشارع الجديد المفتوح أكثرها ، وبقيت لصاحبها بقيةٌ لا تنفع لشىء ، فانتفع بها ليضرب مثلا للنسبة كيف تعتلّ ، وللتناسب كيف يختلّ ، وللحرية كيف تَفسُد بين فرد وشعب ، وللفوضى كيف تسود بين حاكم ومحكوم .

ورجل فى السبعين ، تزوج فتاة فى العشرين . عنده الثراء وعندها الفقر . وقد يُستكمَلُ الفقر من ثراء ، وقد يُستكمَل الثراء

من فقر ، لأنهما نقيضان يجرى عليهما من الجمع والطرح مايجرى على سائر الأرقام . ولكنْ فى هذين الزوجين من النقائض ما لا يُجمَع وما لا يطرح . ففيهما الضعف فى ناحية والقوة فى ناحية ، وهى قوةٌ تطلب القوة ، ولا تَستكملها إلا القوة . وفيهما البرودة فى ناحية ، والحرارة فى ناحية ، وحرارة الحياة لا يستكملها إلا حرارة مثلها .

ورجل ثرىّ ، يملك من المال الألوف مؤلفةً ، فإذا أعطى أعطى سُحْتاً ، رجلٌ اختلت فيه النسبة . وآخر لا يجد قوتَ يومه ، يسأله السائل فيُعطِى قوت يومه ، فتحمد ذلك فيه ، أنانية منا . وهو فى الحق لا يقل عن أخيه اختلالَ نسبةٍ وتناسب . ومِثلُ هذين رجلٌ إذا سُئِل فى بيته أعطى قليلا ، وإذا سئل خارج بيته أعطى كثيراً ، نفاقاً ومظاهرة . ورجل ينفق فى طعامه قرشاً ، وينفق فى دخانه ثلاثة قروش ، ورجل مختل النِّسب .

وقوم يقيمون الولائم ، ويذبحون الذبائح ، ويدعون إليها كلَّ مُتخَم عن الطعام عازف . ويأتى اللون من الطعام بعد اللون بعد اللون ، حتى تَستتِمّ الألوانُ عشرة ، يأكل الآكلون فى أول الدور استطاعة ، ثم لايلبثون أن يأكلوا على كرهٍ تأدبا . وهم إذا دُعُوا إلى إطعام الفقير الجائع لا يُطعِمون . وهم إذا دُعُوا

إلى وضع الطعام ، حيث يستقر به المقام من الأمعدة الفارغة لا يستجيبون . وإذا قيل لهم إن الملآن لا يُملأ ، ولكن يُملأ الفارغ ، لا يفهمون . فهؤلاء قوم اختلت فيهم النسبة واختلت أوزانها . واختل عندهم القياس .

وصبي ينازع صبياً في لهو ، فتخرج من هذا كلمة جارحة ، يتلقاها صاحبه بكلمة أنكأ جرحا ، وتشتد معركة الصغار فيدخلها الرجال الكبار ، وتدخلها النساء . فإذا المعركة مَعْممة عامةٌ ، وإذا الحارة أو القرية ، ميدانٌ تلمع فيه المُدَى ويتطاير الرصاص . وينقشع الغبار عن قتيل وقتيل وقتيل . شرارة صغيرة أحدثت ناراً أكلتْ أعماراً وختمتْ آمالا ، كان من حقها تَطول ، وكان من حقها أن تأمل . وكل ذلك بسبب حسٍّ بالنسب ضائع .

ونسمع عن جماعة من النساء قامت تُعنَى بالطفل الذى ضيّعه أهله . ونسمع عن جماعة من النساء أخرى تُعنَى بالرجل المسلول والمرأة المسلولة ، ونسمع عن حفلاتها ، ونرى تشكيلاتها ، وتذاع عنها الصور والأخبار . فيحمَدُ الجميعُ هذا المسعى عن حق ، وتشكر القائمين به والقائمات عن صدق . ويشعر الناس شعوراً كاذباً بحسن الحال ، ويطمئن الناس اطمئنانا خبيثا على طيب المآل . وكل هذا الإغفال ما بين الأشياء من نِسَب ، وما بين

أمور الحياة من تناسب ، ولو أن الناس اعتادوا النسبة ، لسألوا هذه الجماعاتِ كم من هؤلاء الأطفال آوتْ ، وكم من المسلولين والمسلولات أبرأت ، ولعلموا إذا هم نسَبوا هذه الأرقام ، إلى عددِ ما في هذا البلد ، وسكانهُ عشرون مليونًا ، من أطفال مشرّدين وإلى عدد ما في هذا البلد من مسلولات ومسلولين ، لعلموا أن هذه الجماعات إنما تحاول أن تنزح بحراً بكوز ، أو تروِي حقلا بفنجان ، ولأدركوا أن هذه الأعمال ، لاتساعها . ولكثرة ما تحتاجه من نفقات ، ليست مما تُطيقه هذه الجماعات ، ولكنها، بحكم الزمن الحديث وما تنشّأ فيه من آراء ، من عمل الحكومات ومن فروض الدول . وإن الأمر ليس إحسانًا ولا مَبرّة ، ولكنها حقوق المرضى والعاجزين على الأصحاء والقادرين ، تؤخذ بالضرائب يدفعها دافعها راضياً أو يدفعها غصبا .

**

وتنزل النوازل بالرجال ، وتنزل بالنساء ، فيحسَبون أو يحسَبْن أن هذه النازلة أو تلك هي آخرة الدنيا . والدنيا التي عهدوها واسعةً تَضيق ، والهواء الذي عهدوه يمدّهم بالأنفاس يَخْنُق ، والشمس التي عرفوها تملأ ما حولهم والطرقات بالنور تُظلم .

ويَعزِفون عن الحياة ، ويرغبون الموت . وقد يأتون الموتَ عمداً خلاصاً مما هم فيه . فهؤلاء قوم اختلَّ ميزانهم . لقد رجحتْ من هذا الميزان كفةٌ فيها ماتعطى الحياةُ من شرّ ، بكفة ماتعطى الحياة من خير ، ورجحت رجحانا كما ترجح الموازين، ولكنهم رأوا فيه ، باختلال حسّ القياس فيهم ، رُجحانا غيرَ ما ترجح الموازين . والموازين ترجح حيناً وتَشِيل حيناً ، ولكنهم حسِبوه ، فى شدّةِ النكبة ، رجْحاناً قد انجمد عليه الميزان ، وهو لن يَشِيل بعد ذلك أبداً .

ومن الناس ، ذوى النكبات ، من يختل حسّهم بالقياس حيناً ، وحسهم بالنسب ، ثم يعود . ومنهم من يختلّ هذا الحس عندهم ويدوم . ويأتى الزمان ، يريد أن يفعل فعله فى الرزء الكبير فيصغّره ، وفى النكبةِ الثقيلةِ فيخفّف منها ، وهم لا يستجيبون للزمان فى تلطيفه وتخفيفه . إن الأشياء تَصغُر على البعد ، ميلا ، بعد ميل ، بعد ميل . وتتباعد النجوم الهائلة فتتراءى نِقاطا متألّقةً من نور تجعل من السماء زينة . ولو أنها بانت لنا على البعد ، كبيرة كما هى ، ولم تصغر ، لكفى منها نجم واحد تُسَدُّ به علينا المسالك . والزمان يفعل على البعد ما يفعل المكان .

إن الشيء الذي يبعد في الزمن ، ويغور ، يصغر . وتصغر كذلك الأرزاء والنكبات . ويَبين الماضي ، تنظره العينُ من بعيد ، كما تَبينُ السماء ، زينةً من أرزاء . وتَشْجَى لمنظرها النفس وتَجيش ، وتذكر النفسُ ما تذكر منها فتَطِيب . وقد تمضي لذائذ الحياة جميعاً فلا يبقى منها إلا لذائذ الذكريات .

# أستاذنا معذور

أستاذنا الجامعيّ شابٌّ ، أو هو لم يَعْدُ بعدُ مراحلَ اصطلح الناسُ على أن يَعُدّوها مراحل الشباب ، ولكنه مع هذا قد أوغل في المِهنة إيغالا ، وعلاه الجِدُّ فأكسبه مِسحةً هي أجدر بالكهولة، وأصابه السهو في أكثر ساعاته ، فعاش في نفسه أكثر مما عاش في ما حوله . ويمشي في الطريق وقد اشتغل رأسه بمسألة ، وتركّز فكره على حلّ مُعضلة ، فهو يهتدي في سبيله عادةً وتحسّسا .

> الحب والفلسفة ، هل يجتمعان في قلب ؟ وهل حقا أن الفلسفة تورث القلب قصوراً في الحب ؟

وتزوج ، فانتفض أصحابه لهذا الزواج وانزعج تلاميذه، لأن أحدًا لم يُصدّق أن هذا الرجل ، الذي تقمّص روحَ الأستاذ المِثالي ، وهو لم يَبق عليه ليتّفق ظاهره مع باطنه ، إلّا أن يُرخيَ لحيةً ، ويضع على قصبة أنفه نظارة ، ويحمل تحت إبطه مِحفظة ، أن هذا الأستاذ يدخل إلى قلبه الحب . وتناقش الطلاب ، في جد خطير ، من إناث

وذكور ، كيف يجتمع فى القلب الواحد علمٌ وحب . وزاد فى خبلتهم ، وزاد فى حيرتهم ، أن العلم هنا كان فلسفة ، والفلسفة لها وقار ، اجتمع رأيهم جميعاً على أنه لا يمكن أن يأتلف ونَزَقَ الحبّ . ومرّتْ فى أخيلتهم صورٌ من سقراط وأبقراط ، وأرسطو ، فلم يستطيعوا ، ولم يستطعن ، أن يجمعوا بينها وبين الحب أبداً . لم يستطيعوا أن يجمعوا بين ثِقَلٍ يُلحقونه بها وبين خفّة يتطلّبها الهوَى ، أو ملاعبةٍ ومواثبة لا بد أن تكون إذا أعقب الحبَّ زواج . وتقول لهم إن هؤلاء الفلاسفة كان لهم ولدٌ وكان منهم أعقاب ، فتطالعهم هذه الحقيقة وكأنها أولُ مطالعة . وقد يقبلونها ولكنهم كلما تصوَّروا أستاذهم هذا ، وذكروا جِدّه ، وذكروا توقّره ، وذكروا الرصينَ المتجهِّم من آرائه ، رفضوا هذه الحقيقةَ وعادوا يأبَوْنها حتى على سُقراط وأبقراط .

* *

واجتمعوا بأستاذهم فى الدرس ، فاقترح الإناث على الأستاذ أن يحدّثهم فى الحب ، هل له مكان فى القلب الذى ملأته الحكمة . وهل للصبابة والحكمة إذا تجاورا ، أن يتهادنا ويتعاونا فلا يقوم بينهما ما يقوم بين الضرائر ؟ اقترح الإناث هذا ، وسكت الذكور والضحك يملأ أشداقهم مكتوماً يكاد ينفجر .

ولم يضحك الأستاذ . ولم يبتسم . فقد وجد فيه موضوعاً فلسفياً طريفاً ، فمضى يحاضر فيه على بداهة . ودخل فى الحب يشقّقه ويدقّقه ، ويصف أعراضه وأمراضه ، ويصف ثقيله وخفيفه ، ويصف العابر منه والمُقيم ، ويصف الذى يغشَى صاحبه تسلُّسلا ، والذى يغشى تلصُّصاً ، والذى يفاجئُ باغتا . وانقلبت المسألة إلى درس فى التشريح والتفريع ، والفصل والضم ، والفرض والقياس ، لم يتوقعه سامع ، ولم تتوقعه سامعة .

وتأففت السامعات للحب ، وهو معنى روحانىّ مُبهَم جميل ، أن يُشرّح هكذا ، على جفاف ، تشريحَ المادة ذات الوزن ، والجوهر ذى الجمود .

وقامت فتاة تسأله ، أَنْ حدّثنا عن الحب الذى فى قلبك ، كيف دخله ، وكيف جاز له أن يدخله .

وساد المكانَ سكونٌ رهيب . وانحبست الأنفاس ، واشرأبت الأعناق .

ذهِل الأستاذ لأول مرة ، واحمرّت وجناته . لقد علم لأول مرة أن قلبه هو المقصود . وخفت واضطرب ، وأراد أن يعود إلى وقاره . والخفة تنقض الوقار . وكانت الفلسفة علّمته أنه لابد من جِسْرٍ يعبُرُ إليه العابر لينتقل به من حال إلى حال . فجعل جسره

إلى استعادة وقاره ضحكةً عريضة لبسها وجهه . وضحك الجميع ، وشاعت البهجة فى القاعة ، وانطلق فيها السرور ، وردّده سقفها صدًى ، وردّدته الحيطان أصداء .

وقضى أستاذنا يومه على مثل ما يقضى سائرَ الأيام . وأخذ فى الرواح ، وأصداء الصباح تتردّد فى أذنه ، ومعانيه تتجاوب فى صدره . وسأل نفسه : أحقًّا أن الفلسفة تُورث القلب قصوراً فى الحب؟ واعتزم فى هذه الأمسية أن يَعلوَ سلطانُ الحب على سلطان الفلسفة . ودخل بيته وتلقّى زوجته بالقُبُلات الكثيرة .

وكانت الزوجةُ العروسُ ، وقد مضى لها فى الزواج شهران ، تُعِدّ لزوجها مفاجأة لم تدر متى تَفْجأه بها . فوجدت هذه الساعة خيرَ الساعات . وذهبت ترتّب . وشملهما البهوُ فقالت له :

— ألا ترى يا عزيزى شيئاً جديداً ؟

ونظر مليّاً ثم قال :

— نعم. نعم إنه شَعرك يا عزيزتى ، هذه التسريحة الجديدة ما أجملها . وهذه الذوائب كاللوالب تفتح المُغلَق من القلوب .

قالت :

— ما هذا أردت . إن هذه التسريحة قديمة ، مضى عليها أسبوع .

— إذن ، فالجديد هذا القُرْط الجميل . إنهما قرطان يتدلّيان في اختيال بهذا المُحيّا الذي أبدع الرحمن القليل من أمثاله . إنهما كالحارسان قاما يحرسان باب الجنة ، فهذا الوجه باب جنتي على هذه الأرض . قولي لي كم دفعت في هذا القرط البديع ؟

— أنت أعلم بالذي دفعتَ ، فهذا القرط اشتريتَهُ لي أنت منذ شهر .

وحكّ الفيلسوف رأسه ، وعاد يفكر من جديد . ثم قال :

— آه ، ما أعماني ! إنه هذا الثوب ، فكيف عَميتُ عنه وقد امتلأ بك يا عزيزتي ، فما زانك على حسنه ، وكنتِ أنتِ الزينة .

— لا . ولا هذا الثوب . إن هذا الثوب لبسته صبيحةَ عُرسي .

وأُسقِطَ في يد المسكين ، وراح يتّهم الحكمة ، ويَنحِي على الفلسفة . فلما رأتْ قنوطه ، رحمته ، وقالت :

— بل الجديد يا عزيزي هذه الصورة على الحائط . قال :

— أي والله ، هذه صورة جميلة حقًّا . هذا النهر بمائه الفضيّ ، ينساب في ظلال تلك الغابة ؛

— لا ، ليست هذه الصورة يا عزيزى .

— إذن فأى الصور تقصدين ؟

— أقصد هذه الصورة الأخرى على هذا الحائط . إنها هديّتى إليك .

ونظر :

فإذا بها صورة ... أفلاطون .

# هربوا من الحياة ، فلاحقتهم

منذ أيام نزل بنا ضيفٌ كريم . طفلٌ دون الثالثة من عمره ، أتى ليبيت عندنا ليلة ، ومعه حقيبته الصغيرة ، فيها قميصُ نومه ، وحوائجُ قليلةٌ أخرى . وفتحها وأخرج ما فيها ورتّبها فى مخدع سينام فيه ؟ ودخل علىّ فى حجرة كتبى ، فتلقّيته بالحب والترحاب ، فهو من بعض دمى . وفرغتُ له دقائق ، أطلعه على صُوَر من حيوانات عظيمة ، فيها الأحمر والأصفر ، والشاغر فاه . والرافع ذنبه . وتشبّث بأن يختار بنفسه من فوق الأرفف ما يشاء . وفعل ، وأبى معونتى . فلمّا أيقنتُ أن الكتب بدأتْ تشكو سوء المعاملة ألقيتُ بإرادتى ، فصدمَتْ إرادته . فإذا بى أراه يذهب إلى مخدعه الذى سينام فيه ، ويُعيد قميصَه وحوائجَه القليلةَ إلى حقيبته الصغيرة ، ثم يحملها بيده ويصيح بالخادمة :

— هيا بنا يا فاطمة .

وما عدنا إلى مصر حتى حمل البرق إلينا خبراً : أستاذ مصرى شرب سماً ثم رقد ، ولم يقم من رقدته . فالله أسأل له الرحمة .

قلتُ : إلى أين؟ قال والغضب يعلو وجهه : نعود إلى بيتنا . وكأن لسان حاله يقول :

إذا ضاقت عليّ ديار قوم فأرض الله واسعة الفضاء

فهذا طفلٌ ، رجلٌ صغير ، وجد ما كَرِهَ فأراد أن يتحوّل عنه .

وكالأطفال الصِّبيةُ ، ذلك النفرُ الذى لم يحفظ دروسه ، ويخشى العقاب ، فيختصر الطريق فلا يذهب إلى المدرسة ، أو هو يهرب منها بعد أن دخلها . وكالصبية كثيرٌ من الشبان الذين يختصمون مع أمرهم ، « فيطفشون » .

فهذه صنوف من الهرب ليست بذات خطر . إنه هرب الأطفال وهرب الصبْيةِ وهرب الشبان والغلمان . ولكنْ غير ذلك هربُ الرجال .

إن النبات الصغير الغضّ يُقتلَع من أرضه بسهولة ، وقد يُعاد إلى أرضه فتعُود جذورُه الرخْصة تُمسك بالأرض . ولكن غيرُ ذلك الشجرُ الكبير ، فهو إذا اقتُلِع تقطّعتْ جُذوره ، وهى لا تعود فتُمسك فى تُربتها ، أو أية تُربة أخرى ، من جديد . فهذا الاقتلاع معناه التصوّح والذبول .

والطفل يفعل ويَنسى . ويفعل الصبيّ ولا يكاد يؤنبه ضميره ،

لأنه لم يتكوّن بعد . ويأخذ يتكوّن الضمير فى الغلمان والشبان ، وهو يتم تكوّناً ويكتمل فى الرجال . والضمير المؤنِّب يحمله الرجل معه عند الهرب أينما ذهب .

**

عرفت أستاذ نبات فى الجامعة ، فى نحو الأربعين من عمره . وعلمت فيما يعلم الناس أنه أصابه فى وظيفته عَنَتٌ . وذهبت إلى أمريكا عام ١٩٤٦ . وبينما أنا فى نيويورك ، فى ختام ذلك المطاف ، جاءنى من يقول إن الدكتور الجدّاوى - وليكن هذا اسمه — يُريد لقاءك . وعرفتُ أنه حضر إلى الولايات هو وأسرته ليستوطن ، وأن أوراقه إلى التأمرك آخذة سبيلها بين الحاكمين . وحرّق سفائنه فاستقال من الجامعة . وأمتعته جميعها حضر بها فلم يَبْق وراءه فى مصر من متاع . فقلت : رجل كهذا ، باع وطنه هذه البيعة ، لا ألقاه . وعاد الصديق يقول إنه يُلحّ فى اللقاء . ولم تبق لى إلا ليلتان ، فقلت لعلّ فى الأمر سرّا يريد أن يُفضىَ به إلىّ ، أو لعلى كاسبُهُ لمصر مرة أخرى . فقبلت. ولقيته . وقضيت معه أُمسيةً كاملة بثَّ لى فيها كلَّ همٍّ نفسه . وهو همٌّ يعلم اللهُ كبير . وأصابتنى من جامعته المصرية كراهةٌ ، كادت أن تكون حقداً . وهتف بى هاتفٌ يقول : لو كنتَ مكانه لاتّخذتَ ،

لا إلى هذه القارة ، ولكن إلى المِرّيخ سبيلا . وعطفتُ على صاحبي وهو يتدفق فى شرح مِحنته . فتحيّنت الفرصةَ لأتاطّف له فى اقتراح العودة . فاستشاط غضباً ، وقال : إنه فراقٌ بينى وبين هذا الوطن النَّكِد ولنْ أعود إليه أبداً . وأحسستُ أنه إنما رفع بصوته ليؤكِّد لنفسه ، لا لى ، أنه على ما هو فيه لثابتٌ ، وأنه كالجبل راسٍ ، وأنه لن تحركه الزلازل . وسألته عما يصنع . قال إنه يعمل مع أستاذ للنبات فى حدائق ، وأنه بدأ يعود إلى ما أفقدته إياه مصر من حبّ البحث . قلت وأنا أودّعه : إذنْ فابحث ، واكشفْ من العلم نفائس ، سنةً أو سنتين ، وعُدْ إلى مصر بهذا المحصول ، وأنا ضامنٌ لك ، وإخوانك ضامنون ، مَنصِباً تهواه . فهز رأسه هزّة كذّبها بريقٌ خِلتُهُ برق فى عينيه وقتُ ، فقال : وداعاً . قلت : إلى لقاء .

ولم يكن وداعاً إلى لقاء . كان وداعاً إلى الأبد .

فما كدت أعود إلى مصر حتى حمل البرق إليها خبراً : أستاذٌ مصريٌّ ، يُدعَى الدكتور الجدّاوى ، شرب شيئاً ثم رقد ، ولم يقم من رقدته .

فاللهَ أسأل له الرحمة . وإلى الأستاذ الآخر الفاضل ، الصديق ، الذى أضمر معه ورتّب هذه الرحلة ، أبعث عَبْرَ البحر بالتهنئة له

بالنجاة مما لم يستطع أن ينجو منه صاحبه ، ولولديه اللذين معه أسأل طِيبَ العيش ، وللزوجة الأم ، التى افتقدها فى الطريق ، أدعو بحسن الثواب لجهادها فى الحياة وصبرها على الألم فى الموت .

* *

فهذا مثل للرجل عندما يهرب : يقطع كل الصّلات . يقطع هذا الحبل ، وهذا الحبل ، وذاك ، حتى يَعُدّ من الحبال مائة ، ويركب الأرض ، ويركب البحر ، ثم يستقر على الجانب الآخر من الحياة ، حاسباً أنه ترك أعداءه وراءه ، فيُسَرّ . ثم هو يتلفت إلى يمينه ، فإذا به يجد أعدى أعدائه ركب الأرض معه ، وركب البحر ، وأبى أن يفارقه . . تلك نفسه .

إن صاحبنا الذاهبَ أصابه فى مصر من الناس لا شكّ شيء كثير . ولكنّ أكثرَ ما أُصيب به كان فى نفسه . تلك النفس الحسّاسة ، القَلِقة ، المريضة ، التى أخذتْ تدفع لومَ الناس بلوم ، وتردّ لهم التهمة بتُهَم ، وتتلقّى البصقةَ القليلةَ لتلُوكها لتردّها إليهم أكبر حجما وأكثر لزاجة . حتى جعلت من خصومة الناس همّ الحياة . وشغلها المرضُ والقلق والحسُّ المُرهَف عن القعود فى هدوء تدرس فيها أسباب كل هذا الشغب لتبدأ بنصيبها من إصلاحه . بل لعلها عرفتْ بالحسّ الخفيّ ما سوف يؤدى إليه هذا القعود ،

وكرهت نصيبها من إصلاح ، فآثرت عليه لفحة الخصام ووطيسَ الحرب .

وذهب الدكتور المسكين ذلك المذهبَ البعيد ليبرأ من الناس . وبرئ . ولكنه لم يبرأ من نفسه . لأنه لا يستطيع البعد عنها ، وكيف وهو يحملها بين جنبيه .

* *

وآخرون عرفناهم ، لم يضق بهم وطنٌ ، ولكن ضاقت أسرة : واتخذوا الزوجة من بعد الزوجة ، وحَسِبوا فيمن تركوا السوء ، وفيمن استجدُّوا الخير . وتكذب التجربة ، فيعودون يطلبون الزوجة الصالحة . وما فى الزوجة الفساد ولكن فى الزوج . وأنّى له أن يرى ، ولم تُخلَق بعد المرآةُ التى يرى بها الرجل نفسه كما يرى وجهه ، إذنْ لَعَلِم أنه فى مَهربه إنما يهرب من نفسه ، وهو لا يستطيع منها هربا ، وأنه لا يستطيع أن يجد الزوجة الصالحة ولو بلغ بالزوجات ألفا . وأن عليه أن يطلب ، أولَ ما يطلب ، النفسَ الصالحة .

وغير هؤلاء وهؤلاء قومٌ ضاقوا بالأولاد ، وقوم ضاقوا بالأقارب والأصدقاء ، وقوم ضاقوا بالسياسة والساسة . ولكن أكثر ضيق بالرزق . والناس فى ضيقها بالرزق تنسى دائماً

هذا البيت الجميل ، وهو فوق جماله ، حقٌّ لا مِرْية فيه :

والنفس راغبةٌ إذا رغّبتها وإذا تُرَدّ إلى قليل تقنع

ومن عجب أن من الناس من يضيق بالرزق لسعته . ترا لا كثير يَأذن لصاحبه بأن يذوق من الدنيا كلَّ مذاق ، ويرضع من أثدائها كلَّ حَلَب ، حتى لا يكون فيها طعم يَلَذّ ، أو جديدٌ يُغْرِى . وَيشْبُرُ الأرض شرقا وغربا ، ويَذْرعها أرضاً وبحرا ، ويعود ونفسه معه ، قلقةً مريضة ، لا يحلو على لسانها الحلو ، ولا يَطِيب فى أذنها النغم الجميل .

* *

فإذا ضِقْتَ وقلقت ، فارجعْ إلى نفسك ، وانظرْ ما بها . إن الدنيا كبيرةٌ عظيمة لا يمكن أن يغيّر الفردُ ما فيها . ولكنّ النفسَ صغيرة قليلة ، وهى مِلْكُ صاحبها ، إذا لم تكن غلبتْه فملكتْه . وإذا ضاع اتساقٌ بين كبيرٍ وصغير ، وكثيرٍ وقليل ، أُعيد الاتساق بتعديل القليل الصغير ليتّفق مع الكثير الكبير .

فعدّلْ من نفسك تتعدّلْ الدنيا .

# قلمى

سألونى عن قلمى ، أن أكتب فيه . فهـذا هو بعضُ ما ظهر منه ، وبعض خافيه .

**

كتبت مقالا ، استغرقتُ فى كتابته ساعة كاملة .

ونظرتُ إلى قلمى ، وهو يَشِفّ عما احتوى ، فوجدته قد استنفد كلّ ما احتواه . وقدّرتُ هذا الذى احتواه من حِبْر فكان نصفَ عُقلةٍ من إصبع . ونظرتُ بعين من لا يرى من الأشياء إلا أجرامها ، فيما صنعتُ أنا بهذا القدر من الحبر ، فى هذه الساعة الكاملة ، فوجدت أنى قضيتها فى صبّه على الورق كما يصُبّ الناس الماء ، ولكن مع فارق.

> وقلم الكاتب روحه ، وهو فنه ، وهو إرادته ، وهو كل شىء يعرفه الناس منه ، ويعرفه الناس به ، وهو الجزء الذى يبقى منه إذا بليت سائر الأجزاء .

إن الناس إذا صبّتْ شيئاً ، صبّته دَلْقا ، أما أنا فصببتُ ما صببت من هذا السائل الأسود على هذا الورق الأبيض قطرةً قطرة ، فى شىء من حذر ، وفى شىء من هَوادة ، وشىء من تفريق ، وشىء

من تدقيق ، وشىء من تزويق ، فخطٌّ ذو طول ، وخطٌّ ذو قِصَر ، وخطٌّ مستقيم ، وخط ذو عِوَج ، وخطّ موصول ، وآخرُ غير موصول ، وشىء مَنقوط ، وآخر غير منقوط ، والحاصل من كل هذا صحيفةٌ من خطوط ورسوم ، سمُّوها مقالة ، وهى لو جُمِعتْ من جديد ، ورُدّتْ إلى حيث كانت ، لـكانت : نصفَ عُقلة من حبر أسود .

فهذا أعجب ما وجدت فى قلمى ، وفى كل قلم .

سائل لا حياة فيه مجتمعاً ، فإذا هو تفرّق ، أسخطَ وأرضَى ، وأضحك وأبكى ، وسرّ أو ساء . ولا يُسخط ولا يُرضى ، ولا يُضحك ولا يبكى ، ولا يَسُرّ ولا يسُوء ، إلا شىءٌ ذو حياة . والقلم هو الذى أعطاه ، أعطى هذا الشىء الأسودَ ، أو الأزرق أو الأحمر ، الذى لا حياة فيه ، هذه الحياة .

إن القلم خالقٌ ، إنه مُبدِعٌ ، بالقدْر الذى يأذن الله لخَلْقه من خَلْق وإبداع .

* *

ولقد عرفت قلمى أولَ ما عرفت شيئاً من بوص ، وعرفتُ معه المِبراة . وكانت السن لا تأذن بأن تجمع اليدُ الصغيرةُ بين قلم ومبراة . وكانت السن الصغيرة لاتأذن بأن يدخل صاحبُها المدرسة ،

فأدخلونى روضة أطفال ذلك الزمان . . . الـكُتّاب .

ولم يَرُقْ لى الـكتّاب فلم أقض به إلا يوماً أو بضعةً من أيام ، وضقتُ به ، وثُرْت عليه ، وعصفتُ بأشياء فيه . وقصفت أشياء ، وكان فيما قصفته أولُ قلمٍ عرفته .

ودخلنا المدرسة ، فكان أول شيء أتحفونا به ، حُزمةً من ذاك البوص ، قالوا لنا إنها الأقلام ، وإنها لعامٍ أو بعضِ عام . وجاء أول درس كان علينا فيه أن نتعلم ، كيف نكتب بالقلم ، فإذا المدرّس ، وكان ذا عمامة ، يقضى ساعة وساعة فى بريها ، ثم إصلاح شكلها ، ثم ترقيقها ، ثم تضييقها ، ثم يضغط على السن الرقيقة من ظاهرها ، فتنشق ، ثم هو يَقُطّها ، قَطّةً للثُلُث ، وقطّة للنسخ ، وقطّة لغير هذا وهذا . ثم نغمس القلم الرقيق ، ذى السن المشقوقة ، فى المِحبرة ، فيشرب منها ، ونَخُطّ به ، انجرب ، فقد نَحْمد وقد نذُمّ . ويبدأ الدرس ، درس الخط . ولا يلبث الشيخ فيه طويلا حتى يقطعه من جديد ، ليدور علينا بسلاحه الحديد ، ليُقِيل عَثْرةَ سِنٍّ رفيعة كبت على الورق من رقتها . أو يُرَفِّع من سن ثخينة بطش الحبرُ منها لثخونتها .

كان المدرس الشيخ ، مُعلّمَ خط وبَرّاءَ أقلام فى آن .

وتقدم الزمن فجاءتنا الأقلام فى أول العام مَبريّة جاهزة ،

ثم علينا وعلى آبائنا إصلاحها من بعد ذلك .

وزاد الزمان تقدماً . فإذا نحن نستبدل بسن الخشب شيئاً من فولاذ . وحدث هرْجٌ وحدث مرْجٌ من هذه النُقلة الكبيرة ، وضحّى الناس فيها بشيء من الفن الجميل غير قليل ، قدّموه قُرباناً للحداثة وللسهولة وللكثرة الكبيرة من الشعب التي كان لا بد لها أن تتعلم فى سرعة ، وفى غير عَنَتٍ وفى غير إرهاق .

وعاد الزمن يتقدم ، فإذا القلم يحمل فى بطنه غذاءه ، ويَمُجّ من معدته رِيقَه ، وصار القلم قلماً ومِحْبرة فى آن .

فهذه أقلامى منذ عرفتُهُ وعرفنى الزمان ، ليت شعرى لو عَدَدْتُها كمْ قلما تكون ؟ وعرفتْ أقلامى أوّلَ ما عرفتْ العربية ، ثم هى تتدرج فتعرف الإنجليزية ، ثم إذا هى بالفرنسية تَلوذ ، ثم هى من الألمانية تَعُوذ . حتى التركيّة كان لها من محابرى سُقْيا ، وكان لها نصيب .

**

وأقلام الكاتب تتعدد كثيراً ، وهى إنما قلمٌ واحد . وهى قد تطول وقد تَقصُر ، وهى قد تَرِقّ وقد تَغلُظ ، وقد تختلف مادة وقد تختلف شكلا ، وقد تختلف جوهراً وقد تختلف عَرَضاً ، وقد تختلف فصاحة وتختلف رِطانة ، ولكنها فى كل ذلك أجسام تتقمّصها روحٌ واحدة .

والرجل يركب الدابة ليقودَها إلى حيث يُريد . والقلمُ يركبُ يدَ الإنسان ، ولكنه لا يَقُود . إنه راكب مَقود : إنه راكب مركوب ، زِمامُهُ فى تلك الروح الواحدة :

وقلم الكاتب روحه ، وهو فنه ، وهو إرادته ، وهو كل شىء يعرفه الناس منه ، ويعرفه الناس به ، وهو الجزء الذى يبقى منه إذا بليتْ سائر الأجزاء :

إن قلم الكاتب مرآة يراه فيها الناس .

* *

وأكتب أحياناً فيسهل قلمى فيجرى بى رَمحاً : وأكتب أحياناً فيصعُب قلمى ، ويَحْرَن ، وأنخُسهُ فلا يتقدم خطوة .

وقلمى يرضَى فيميل إلى الزهر والورد والرياض فيغشاها ضاحكا أو باسماً . وقلمى يغضب فيطلب زفتَ الأرض وقطرانها يَصبّه على بعض الرءوس حُمَماً ، وهو متجهم ثائر ، ثم يموء بمجهوده فيسترخِى ، ثم لا يرى ما كتب الضياء .

وقلمى يعتريه حيناً شكٌّ فيما يكتب ، وفى قيمة ما يكتب ، وفى قيمة الناس والأشياء والحياة ، فيرقد زَهادةً . وحيناً أُغريه بالقيام فيقوم ، وأُغريه بالجِد فيأبى مزاجُه أن يكتب إلا سخرية ، وإلا هزلا .

وقلمي عامل كبعض العمال ، وهو قد يُؤجَر على ما يكتب كما يؤجر العمال ، ويؤجر في غير بخس ، ومع هذا لا يبالي أن لا يؤجر ، ولا يبالي أن لا يعمل ، وكَرِهَ فيما صادف في جوانب الحياة الأخرى رَتَابَة الحياة ، فهو يكره الكتابة الراتبة ، ويكره حياة المصنع ، الذي يبدأ العمل فيه بصفير ، وينتهي بصفير .

ولكلّ رجلٍ في الحياة صاحبٌ وصحاب . وقلمي ألصق أصحابي بنفسي ، وأمزجهم بها ، وأحضرهم إذا دعوتُ . وأفاقُ مع الليل فأقوم عن الفراش فأطلب السمير والزميل ، فيكون قلمي زميلي وسميري ومخفِّفَ وطأةِ الزمان الثقيل . وأبوح له ، ليبوح للناس ، فيفعل ، وأبوح له ليبوح ثم أعدِل ، وأقول لا تَبُحْ فلا يبوح . إن قلمي صاحب نجواي وصاحبُ علانيتي ، وهو منّي ، ونحن من أهل الدنيا اللذان نحيا الحياة إذا حَيينا سويّا ، ونَكُفُّ عنها إذا كَفَفنا سويا ، ولله عاقبة الأمور .

# كتب المؤلف

---

مرجريت أو غادة الكمليا

قصة المكروب

چان درك

سَلَطة علمية

سلطة أخرى علمية

ساعات السَّحَر

بين المسموع والمقروء

وهى تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

٩ شارع الكرداسى بعابدين — القاهرة

ومن المكاتب الشهيرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٦٥ / ١٩٦٩

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر